



# جوليات كلية الآداب

# ANNALS OF THE FACULTY OF ARTS

تصنف عن كلية الآداب - جامعة الكويت

Issued by the Faculty of Arts, Kuwait University

الرسالة الرابعة عشرة: في التاريخ

FOURTEENTH MONOGRAPH (HISTORY)

القدامة والصلحية

THE "QUDAMAS"  
AND "AS-SALIHYYA"

د. شاكور مصطفى  
قسم التاريخ - جامعة الكويت

Dr. SHAKER A. MOUSTAFA  
Department of History - Kuwait University

١٤٠٢ - ١٩٨٢

الحوالية الشالفة

Volume No. 3, 1982



# حوادث كلمة الآداب

تصنّف رعد عن كلمة الآداب - جامعة الكويت

دورية علمية منتظمة تتضمن مجموعة من الرسائل التي تعالج بأصناف موضوعات وقضايا، ومشكلات علمية في مجالات الأديب والفلسفة والتاريخ والاجتماع والجغرافيا وعلم النفس ويمثل معينا علميا للمثقفين والمكثريين.

الحكومية المنشأة - الرسالة الرابعة عشرة

١٩٨٢ - ١٤٠٢



د. عبد الله يوسف الغنيم  
د. نجاة عبد الفتاح والقتاني

د. محمد صفي الدين أبو العز  
د. فؤاد زكريا  
د. د. سعد عبد الرحمن  
د. فهد ثابت الشاقي

د. سفيان الفيل  
د. مكي السلي  
د. سعيد عا شعل

فمن الرسالة

الكويت ٤٠٠ فلس - البحرين نصف دينار - قطر ٥ ريال - الإمارات ٥ درهم - السعودية ٤٠٠ ريال - عمان نصف ريال - اليمن الجنوبي ٢٠٠ فلس - اليمن الشمالي ٣ ريال - العراق ٤٠٠ فلس - ج. ٢٥٠ قريش - لبنان ٥ ليرات - الأردن ٢٥٠ فلس - سوريا ٥ ليرات - العراق ٢٥٠ فلس - ليبيا ٤٠٠ قريش - الجزائر ٥ دينار - تونس ٤٠٠ فلس - المغرب ٥ درهم.

الإشتراك السنوي

للاشتراك في الكويت - دينار وخمسة فلس في الوطن العربي - عشرة دولارات  
أمريكا في الخارج بالبريد الجوي.

للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية ودائير كويتية - في الخارج أربعون دولار أميركا.

لأعضاء هيئة التدريس والطلاب خصم ٥٠ %  
جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية استفسارات أخرى بشأن المعلومات توجه إلى  
رئيس هيئة تحرير المجلات - ص. ب. ٢١٥٨٥٥ - القاهرة - الكويت



المسألة الرابعة عشرة

القرآن الكريم

أ.د. شياكي مصطفى  
مقيم التابيح - جامعة الكويت

مجلات كلية الآداب - المحرلة الثالثة - ١٩٨٢ - ١٩٨٣

١٠٩١٦١  
١٩١٥٠  
٥



# محتوى البحث

٧	مؤخر.....
٩	١- آل قدامة الخبابة والهجرة إلى دمشق .....
١٨	٢- المقادسة ونشأة الصالحية .....
٢٥	٣- ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية .....
٤٠	٤- الصالحية في العصر المملوكي .....
٥٢	٥- آل قدامة والصالحية المملوكية .....
٧٥	٦- مدارس آل قدامة ورجال الأسرة .....
٧٦	أولاً - المدرسة العمرية .....
٨٥	ثانياً - المدرسة الضيائية (دار الحديث الضيائية المحمدية) .....
٨٨	ثالثاً - المدارس الخنبية الأخرى بالصالحية .....
٨٩	رابعاً - شيوخ المقادسة .....
٩٥	نحو التلخيص والتقويم .....
٩٩	ملاحق البحث .....
١٠١	(١) الجداول .....
١٠١	الجدول الأول : آل الشيخ أحمد .....
١٠٢	الجدول الثاني: آل عبد الهادي .....
١٠٣	الجدول الثالث: آل عبد الواحد السعدي .....
١٠٤	الجدول الرابع: آل سرور .....
١٠٥	(٢) الخرائط .....

## المؤلف :

١. د. شاكراً مصطفى

- دكتوراه في التاريخ الإسلامي، جامعة جنتف ١٩٧١.
- استاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الكويت.

## من انتاجه العلمي :

- ٢١ مؤلفاً في الأدب والتاريخ منها:
  - التاريخ العربي والمؤرخون.
  - دولة بني العباس.
  - المؤرخون في العهد السلجوقي والأيوبي.
- (بالفرنسية) ١٢٥ بحثاً ومقالة منها في التاريخ :
  - طفتكين أول الأتابكة.
  - الحركات الشعبية في دمشق بين القرنين الرابع والسادس للهجرة.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## أَقْدَامُ تَارِيخِ الْعَصْرِ الْمَعْرِفِيِّ

مؤخر

آل قدامة أسرة فلسطينية الأصل. دمشق المهرج وانشاط جنبية المذهب تركت أثرها الواضح في تاريخ الفكر الاسلامي ورجاله في العصر المملوكي سواء بكثرة من ظهر فيها من العلماء أو باستمرار نشاطها العلمي الذي امتد عدة قرون ما بين أواسط السادس الهجري وحتى أوائل القرن العاشر.

قام نشاط هذه الأسرة في بقعة مجاورة لدمشق حملت اسم (الصاحلية) بنى فيها آل قدامة البيوت والمدارس الأولى ولم تلبث أن أصبحت هذه البقعة بلدة صغيرة ثم بلدا واسعا للعلم والعلماء في العصر المملوكي حوى عشرات المدارس وعشرات المساجد والزوايا والخانات والتكايا وسكنه وبرز فيه كما قدم اليه المئات من العلماء بجانب ما قام فيه من النشاط الاقتصادية والاجتماعية. وكان ظهور الصاحلية حدا هاما في تطور دمشق العمراني والديمقراطي والاقتصادي بجانب شأنه العلمي.

وإذا عرف التاريخ الاسلامي عددا كبيرا من الأسر العلمية فإن أسرة آل قدامة تكون في طبيعتها بعدد وشهرة من أخرجت (هي والأسرة المتصلة بها) من العلماء الذين يزدون على ١١٥ في الممد بين رجال ونساء على امتداد ثلاثة قرون ونصف القرن.

وإذا عرف التاريخ الاسلامي انشاء العشرات من المدن، وقد أحصى بعض الباحثين منها ثلاثمائة مدينة في أنحاء الأرض الاسلامية، فلا يكاد يوجد بينها مدينة واحدة أقمها العلماء وتخصصت بالعلم في الدرجة الأولى سوى (الصاحلية). ولم يدرس تاريخ تلك الأسرة آل قدامة بشكل متكامل، وإن حملت كتب التراجم الكثير من أخبار رجالها، ولا درس تاريخ الصاحلية دراسة تكميلية حديثة وأن كتب عمد بين طولون ثديا تاريخا مواقعها ورجالها في كتاب طبع قبل ٣٣ سنة في دمشق بعنوان (القلند) الجوهري في تاريخ الصاحلية) وكتب قبله ابن عبدالحادي كتابا ضاح فلبينا منه المختصر الذي اختصره محمد بن عيسى بن كنان باسم المروج السندية الفسحة (أو الفيحية) في تاريخ الصاحلية وقد طبع بدوره في دمشق سنة ١٩٤٧.

وهذا البحث محاولة لدراسة هذه الظاهرة الفريدة التي ارتبط فيها وتماثل تاريخ أسرة علم مع تاريخ بلدة علم مدة تقرب من أربعة قرون، وكونا جانباً من تاريخ الفكر العربي الاسلامي في الشام خلال العصر المملوكي.

١٠٨	.....	الصور (٣)
١١٣	.....	مصادر البحث
١١٣	.....	المراجع العربية
١١٦	.....	المراجع الأجنبية
١١٨	.....	المؤخر بالانجليزية



## ١) آل قدامة الحنابلة والهجرة الى دمشق :

في الثلث الأخير من القرن الخامس للهجرة / الحادى عشر الميلادى تحولت القدس (ومعظم فلسطين معها) بين عدد من الأيدي الحاكمة التباينة فقد كانت حتى شوال سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢م في أيدي الفاطميين (الشيعة السنية) وخليفتهم المستنصر في القاهرة فاختطفها منهم مغامر تركى هو أنسر بن أوق الخوارزمى الذي ما لبث أن أعلن ولاه لبغداد العباسية (السنية) وللسلطان السلجوقى ملكشاه وأقام لها الخطبة في القدس وجنوبي الشام. ثم ما لبث أن وقعت مملكة أنسر في يد تنش بن ألب أرسلان (شقيق السلطان السلجوقى ملك شاه) الذي أقطع القدس بعد ذلك الى زعيم كبير من زعماء الترك العز هو أرتق بك وقد توفى أرتق بك سنة ٤٨٤ / ١٠٩١م فصارت المدينة لولديه سقمان وأيلغازى ولكن الفاطميين انتهزوا فرصة وصول الصليبيين الى الشام فهاجوا القدس واحتلوها (شعبان - رمضان سنة ٤٩١) ولكنهم لم يبقوا فيها سوى أقل من سنة ريثما وصل الصليبيون من انطاكية الى فلسطين واحتلوا القدس في المذبة المشهورة (٢٢ شعبان سنة ٤٩٢ / ١٥ توز (يوليو) سنة ١٠٩٩) وصارت فلسطين (مع الساحل الشامى) بالتدريج في أيديهم .

عرفت القدس في الفترة التي امتدت ما بين عودتها الى الولاة العباسى ثم السلجوقى السنى وبين سقوطها في أيدي الصليبيين (وهي ٢٧ سنة) مرحلة من النشاط الفكرى لم تعرفها في تاريخها السابق. فقد كان خلالها من أيدي الفاطميين وهي ثالث الحرمين رنة فرح واسعة في المشرق الاسلامى (السنى) وفي المغرب الاسلامى (السنى أيضا) وهرع اليها العلماء من الطرفين فيما يشبه أن يكون محاولة لازالة مآقد يكون قد علق فيها من المذهب الفاطمى الذي استمر بسود فلسطين رسميا أكثر من مائة سنة .

## بسم الله الرحمن الرحيم

## الْقَادِمَةُ الْخَبِيرَةُ

اعتباراً من أواسط القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) بدأت تبرز في دمشق أسرة علمية عرفت بآل قدامة أو القادسية اتخذت سكناً لها بقعة جرداء في سفح (قاسيون) الجبل المطل على دمشق فما لبثت هذه البقعة أن صارت تجمعاً سكانياً عرف باسم الصالحية. (١)

وتنفرد الأسرة القدامية باستمرار ظهور العلماء منها عدة قرون كما تنفرد الصالحية بأنها البلد الوحيد في الاسلام الذي نشأ لاهل أنه مركز سياسى أو اقتصادى أو عسكري (على ما نعرف من نشأة البلاد) ولكن على أنه مركز علمى. وتتربط نشأة ذلك البلد وقوه وشهرته مع نشأة تلك الأسرة ونموها وشهرتها حتى أواخر العهد المملوكى .

فمن هم آل قدامة ؟ وما حكاية الصالحية معهم وحكايتهم معها ؟

(١) بقيت هذه المنطقة ضاحية من ضواحي دمشق القامة حتى مطلع هذا القرن ثم ما لبثت أن انفصلت عنها بالتدريج حتى أصبحت اليوم أحد أحياء دمشق الواسعة الكثيفة السكان .



من بعد يعتقدون أنهم ماوصلوا الى ماوصلوه من الخير الا ببركة هذا الدعاء (٣).

وجاء الاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢ ليخيق بضرية دموية واحدة كل تلك الحركة العلمية و يستحق سحتا. ويكفي أن نعلم أن الفرنجة قتلوا يوم احتلال القدس وذبحوا ضمن السبعين ألفا من القتل ثلاثة آلاف مابين عابد وعالم ذكر وانشى ومعتكف مشهور الحالة ومذكور بالديانة وفيها قتلت «الملكة الشيرازية بقية السلسلة في جملة النساء» (٤).

وأقام الفرنجة مملكة القدس الصليبية والامارات الأخرى. واقتسموا المناطق المحتلة اقطاعات على الطريقة العربية بين الأمراء والفرسان. وإذا كانت مذايحهم قد تناولت المدن الكبيرة فانهم أبقوا على السكان المدنيين الباقين لاستخدامهم ولم يمسوا الفلاحين المسلمين في القرى، لأنهم مورد الرزق وقد فرضوا عليهم الجزية وقيود الإقامة الاجبارية في محاولة لتحويلهم الى نوع من عبيد الأرض.

وإذا ظهرت بعض ملامح المقاومة لدى السكان في المناطق الجبلية النابلسية على شكل عصابات «حرامية تكبس الضياع» ونهبتها أو على شكل تصيّد فردى للحجاج في المدن يحاولون عليهم في البيت ويقتلونهم (٥) فان بقايا الجذوة العلمية كانت بدورها تبص تحت الرماد وتشكل نوعا آخر من أنواع المقاومة للسيطرة الفرنجية وكانت تتمثل في خطباء الجوامع الذين كان بعضهم يرحل الى الشام أو الى مصر لطلب القراءة والحديث وللدراسة الدينية. وقد اشتهر محمد بن قدامة ثم ابنه أحمد وحفيده محمد أبو عمر خطباء جامعيل بالتقوى والعلم

(٣) ابن رجب الحنبلي - ذيل طبقات الحنابلة (ط). حامد القفي - القاهرة سنة ١٩٥٢ ج ١ ص ٧١ وسوف نشير اليه فيما بعد باسم ابن رجب فقط.

(٤) ابن العربي - المراسم في القواصم (تحقيق الطالبي - الجزائر ١٩٧٤) ٢/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٥) انظر في هذا أسامة بن منقذ - الاعتبار (ط). فليب حتى. برنستون ١٩٣٠ ص ١٣٨ و ١٣٩.

وهكذا دبّت في القدس ومدن فلسطين الأخرى (مثل نابلس وعسقلان

وعكا) دورة من النشاط العلمي الواسع. فتأسست في القدس مدارس للمذهبتين الشافعي والحنفي. وانتشرت حلقات المناظرة والدرس بين علماء المذاهب المختلفة بما في ذلك الحنابلة والكرامية والمعتزلة. وكان بعض العلماء يقصد الساحل مابين عسقلان حتى عكا وحتى طرابلس (وكان الساحل يتبع الفاطميين سياسيا وفي المذهب الرسمي) لمناظرة علماء المذهب الفاطمي في تلك البلدان، وبرز في هذه الفترة عدد من العلماء المحليين (كابن الرومي) الحافظ الذي أسره الصليبيون ثم قتلوه سنة ٤٩٢ وأبى الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي المتوفى سنة ٤٩٠ بجانب عدد من العلماء العراقيين من العراق وخراسان (كأبي سعيد الزنجاني والامام الصاغاني والزوزني وغيرهم) والوافدين من المغرب (كأبي بكر الطرطوشي وابن العربي الاشبيلي) ولعل أعمق هؤلاء جميعا في الأثر هو أبو الفرج عبدالواحد بن محمد الشيرازي الحنبلي الذي ترك بغداد ومنازعاتها الدموية الحادة بين المذاهب وجاء فسكن القدس سنين طويلة ونشر فيها وفيما حولها مذهب الامام ابن حنبل بما توافد عليه من طالبي العلم ومناصب اليه من الكرامات حتى تشكلت بتأثيره كتلة حنبلية واضحة نقلت النزاع مابين الأشاعرة والحنابلة من بغداد الى فلسطين. وصار لها الاتباع من المريدن والعامة قبل أن ينتقل الى دمشق ويتوفى فيها (سنة ٤٨٦). وكان بين الذين قدموا على الشيرازي في القدس وحلوا المذهب الحنبلي عنه شيخ قروي يدعى قدامة بن مقدم بن نصر عبدالله، جاءه مع أخيه من قرية جعّايل (١) وسأله أن يدعو له بأن يرزقه الله حفظ القرآن. وقد ظل بنو قدامة أمة

(٢) تقع قرية جامعيل على بعد ١٦ كم من جنوب غربي نابلس وهي واحدة من مجموعة قرى تتفرع بين السفوح والوديان هناك وتجاور ثلاثين قرية عدا جامعيل: مردا، زبنا، ياسوف وسلفت... وبلفظ الاسم ينتج الجهم وتشديد الهم واللام في الآخر (راجع باقوت ١١٣٢) وهو اسم قديم آرامي الأصل في الغالب. ولعله - فيما أرى - يتكون من كلمتي (جدة - ابن) الأراميتين ودة تنمى بئر أو نبع والى هي الاله بمعنى نبع أو بئر الاله - وأهل البلاد يصحفون الاسم اليوم في اللقطة الى جامعيل بالون ويصرفونه - كما ورد لدى مصطفى مراد الدباغ في كتابه - بلادنا فلسطين (ج ٢ ص ٤٦٥) - بأنه أعطى للبلد بسبب كثرة من ظهر فيها من جامعي العلم وهو تفسير ساذج لأن الاسم أقدم بكثير من ظهور العلماء الجامعيين هؤلاء لم يظهر الا بعد القرن السادس للهجرة.



وتنبهه الفرنسي لنشاطات الشيخ أحمد وقيل له: «إن هذا الرجل الفقيه يشغل الفلاحين عن العمل ويجمعون عنده. فتحدث في قتله» (١٠) وثنا الجبر إلى الشيخ عن طريق رجل تسميه المصار (ابن تسيب) وكان كاتب باليان ووزيره (مساعدته) وكان يعتقد في مشايخ المسلمين ويحسن إليهم (١١). فقرر الشيخ أحمد الحرب إلى دمشق حيث كان قد درس العلم على حناياها بني الشيرازي الحنبل.

لم يكن اختياره لدمشق ناجا فقط عن أنه درس فيها وعن أنها أقرب بلد إسلامي إلى بلده وعن أن العلاقات التجارية والإجتماعية كانت دوما قائمة وقوية بين نابلس ودمشق من خلال الطريق التجاري الذي يربطهما باستمرار ولكن كان ثمة سبب آخر يجذب الشيخ أحمد الجماعلي إلى دمشق ويفتح لضيقة بالحكم الفرنسي باب الأمل هو أن هذا البلد قد انقلب بعد طول استخذاء أمام الفرنجة وطول معالاة وبعده دفعه الجزية لهم أيام معين الدين أرتغر أيام الملك مجير الدين أبق (آخر رجال الأسرة الطغتكينية) فقد وقع منذ سنة ١١٥٤/٥٤٩م بيد نور الدين بن زنكي الذي أخرج منه الملك المستنزي ووجد ما بينه وبين حلب في جبهة واحدة بينما كانت سمعته بالتقى والجهاد معا تهد له السبيل إلى الزعامة السياسية الكبرى وتجعل منه في الخواطر بطل الإسلام المنتظر وبطل التحرير.

بالثابت أن يحكم نابلس وريفها إلا أن كان ملحقه باقطاع زوجته. وعلى أي حال فقد مات قبل سنة ١١٥٥/١١٥٠هـ (أي قبل هجرة آل قدامة بستين). أما صاحبة نابلس منذ سنة ١١٥٢/٥٤٧ فهي الملكة ميليسند. وأما باليان صاحب نابلس فهو باليان الثاني (الذي تدعوه المصادر الإسلامية أيضا وأنظر أبا شامة والفتيح القسي - باسم باليان بن بارزان) وقد آلت إليه إمارة نابلس منذ سنة ١١٦٨ أي بعد سنة ٥١٣هـ وهو الذي شارك في حطين ثم قام بغارة صلاح الدين لتسليم القدس من بعد. ويبدو بوضوح أن المصادر الإسلامية تخرج مابين الشخصيتين كما تحسب أن الثاني هو الأول نفسه. وربما كانت شهرة الشافعي وحكمة نابلس هو الذي جعل الروايات تحسبه الاقطاعي نفسه الذي كان سببا في هجرة آل قدامة.

(١٠) القلائد ١/٢٧

(١١) المصدر نفسه ويلاحظ أن النص يخطئ بين اسمي باليان وبلدوين (فقدوين).  
ونظر حول دراسة الشيخ أحمد في دمشق: المروج ص ٣

وقوة التأثير على الناس فكان أن أهل القرى الجماعيلية يهرعون إلى سماع خطبهم أيام الجمع. وكانت هذه الاجتماعات مجال لقاعات دراسية لأهل تلك القرى تجرى فيها تلاوة القرآن وحفظ الحديث... (١).

ويبدو أن مقاومة آل قدامة الدينية للفرجة تثقلت - بدافع من حنبلتهم - في المريد من التمسك بالايان والورع والتقوى ولم يكن الشيخ يخفي مشاعره ضد «الكفار» المحتلين وكان يحرض الفلاحين على الانصراف للدين وترك العمل للفرجة في الأرض (٢) وكانت أقواله تلقى الصدى لدى أهل القرى الذين كانوا يعانزون الكثير من ظلم الاقطاعيين ونعسفهم وانفق أن صاحب اقطاع «الجماعليات» النابلسية في أواسط القرن السادس الهجري كان من الاقطاعيين المعتاة وكان يتقاضى الفلاحين أربعة أضعاف الجزية التي يأخذها غيره. وكان يؤذي الناس فيها أبشع الأذى ويعاقبهم عليها بالحبس وقطع الأرجل (٣)...

والنصوص الإسلامية تسمى هذا الاقطاعي الفرنسي باليان بن بارزان (٤) ولعل في هذه التسمية خطأ.

(١) ابن طبرون - القلائد الجهرية في تاريخ الملاحية (تحقيق دهان - دمشق ١٩٤٩) ج ١ ص ٢٧ وسوف نشير إليه من بعد باسم القلائد.

(٢) المصدر ذاته وابن كنان - المروج الفسيحة (تحقيق دهان - دمشق سنة ١٩٤٧) ص ٣ وسوف نشير إليه باسم: المروج.

(٣) المصدران ذاتهما.

(٤) انظر المصدر السابق نفسه وأبا شامة - الروافدين (٩٥ و ٧٧/٢) والأكنس الجليل (١/٣٣٨) - ط. المحاسب - عمان ١٩٧٣ (الفتح القسي (ط. ص ١١٧/١٢٦، ١١٢٧، ١١٢٨، ١١٢٧). وليس في الحكام الفرنجة المعروفين في أواسط القرن السادس الهجري / ١١٢ من يحمل مثل هذا الاسم (ابن بارزان) فلما أن يكون مجرد موظف لجميع المال غير مذكوره، ولما أن يكون الرجل المعنى هو باليان شارتر صاحب بيني وأرسوف و يافا ويرف باسم باليان الأول أو الفرنسي أو المعجز مؤسس الأسرة الاقطاعية بلبين بين التي أضحت أشهر أسرة رستقراطية في الشرق الافرنجي وزوجته كانت صاحبة الرملة. وليس



ولكن هذا المسكر لم يلتق بالهاربين الذين نجوا أيضا من قطاع الطريق بالصدفة ووصلوا دمشق في ثمانية أيام يقودهم أبوعمر محمد بن الشيخ أحمد. وتلقاهم الشيخ فأنزلهم في مسجد أبي صالح ..

وهذا مسجد قديم الانشاء وكان موقعه في ظاهر الباب الشرقي خارج دمشق وفيه بئر وله أوقاف. أقام فيه من قبل جماعة من الصالحين ومنهم الزاهد أبو بكر بن سند حمدويه الدمشقي ثم خلفه فيه أبو صالح مفلح بن عبد الله الحنبل الذي توفي سنة ٥٣٠ ونسبت اليه عدد من الكرامات أو المناقب كما أعطى اسمه للمسجد . (١٥)

ونزل المهاجرون من جاعيل في هذا المسجد ولم ينتسبوا أمام الدماشقة الى قريتهم ولكن الى بيت المقدس لأنها الأشهر والأقدس في أذهان الناس . وللسبب نفسه ولأن ظاهرة الانساب القبلية كانت قد اضمحلت في المجتمعات الاسلامية لم يصروا على حل نسب آل قدامة. وتوالى ورود المهاجرين من الجماعيات الى دمشق تباعا بعد ذلك من بقايا الأسرة القدامية وأقرائها (١٦) . وبينما كانوا يتكاثرون في العدد وتنفق وتصعب في الوقت نفسه مهمة معاشهم ومقاتلهم، كانت مصاعب من نوع آخر تلاقيهم لتزيد في يؤس هجرتهم :

(١٥) انظر ابن عساكر - تاريخ مدينة دمشق، ١ (ط. البجد / دمشق ١٩٥٥) ج ٢ قسم ١ ص ٨١ وانظر ابن شداد الأعلام الطيرة (ج: دمشق تحقيق الدهان ط. دمشق ١٩٦١ - ١٣٧٧ والقتلا ج ١ ص ١٦٦ - ١١٧٧ والنخب الدارس في تاريخ المدارس (تحقيق الحسني - ط. دمشق ١٩٦٩) ج ١ وابن عبد الهادي (مدار القاصد - طلس / دمشق سنة ١٩٤٣) ص ١٠٨ .

وقد ذكر ابن طبرون في القلائد أن لابي صالح ترجمة في السير للذهبي بين وفيات سنة ٥٣٠ وليس في المطبوع هذه الترجمة ولعلها سقطت. فهي بما يستدرك على النسخة المطبوعة (تحقيق البجد - طبع الكويت سنة ١٩٦٣).

(١٦) يفصل صاحب القلائد الجهرية اسماء ونوايل وصول هؤلاء بعضهم بعد بعض (ج ١ ص ٣١ - ٣٣) كما يذكر موتاهم تفصيلا.

ولم تكن طرق السفر آمنة بين مملكة الفرنجة ومملكة دمشق فعليها قطاع الطرق في الغور وعلى نهر الشريعة وعليها جند فرنجي يقبضون على من يهرب من الفلاحين. وفلا مضى الشيخ أحمد مع ثلاثة من أهله (بن أخيه محمد بن أبي بكر، وابن أخيه عبد الواحد بن أحمد وزوج أخته الأخرى عبد الواحد بن علي بن سرور) في رجب سنة ٥٥١ هـ - ايلول سنة ١١٥٦ (فوصل دمشق. ولا شك أنه اتصل بجماعة الجبابرة فيها وأنس بإمكان الاستقرار هناك و يبدو أن بني الحنبل شيخ الحنابلة في دمشق وعدوه بالسماح له ولأهله أن ينزلوا في مسجد بظاهر دمشق يعرف بمسجد أبي صالح، وكان مع أوقافه تحت تصرفهم، فقرر الشيخ البقاء نهائيا في دمشق وكتب مع أقربائه الذين أوصوه الى ابنه أبي عمر محمد يطلب منه اللحاق به وأنه «ما بقي يرجع الى تحت أيدي الكفار أبداً ويقول: ما أقول الا كما قال ابراهيم عليه السلام فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم» (١٢)

ولم يكن بإمكان الأسرة الرحيل بحرية الى دمشق لأنها مرتبطة بالارض وبالجزيرة الفرنجية الجماعية على القرية. لذلك اختفى الجماعة التي رجعت الى جاعيل عن أهل القرية والقرى المجاورة لئلا يعلموا بسفرهم.

ولكن الأمر شاع حين خرج من مجموعة قري جاعيل وياسوف ودير عوريف والساويرا ومردا وغيرها ما مجموعه خمسة وثلاثون نفسا من ذكر وأنتى وكبير وصغير (١٣) هم جبهة آل قدامة ومعهم بعض الأدلاء (ثوال سنة ٥٥١ / تشرين الثاني - كانون الأول سنة ١١٥٦).

وحاول أهل القرية منعهم فلما لم يقدروا أعلموا بهم الكفار حتى يتعورهم فمضى عسكريا فقتلوا لهم على الشريعة حتى يأخذوهم. (١٤)

(١٢) القلائد ج ١ ص ٢٨.

(١٣) المصدر ذاته ج ١ ص ٢٩، ٣٠ وهناك تفصيل اسمائهم...

(١٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٨.



وقد كان ذلك. ونجح المقادسة في الأمرين: فقد اجتذبوا الناس بالتقى

والسنتين إلى مسجدهم فكانوا يزورهم تلاوة القرآن وقراءة السبع (الذي كان أهمل بالمسجد) وسماع دروس الدين. وبلغ من حسن شهرتهم أن زارهم في مسجد أبي صالح الشيخ أبو سعد عبد الله ابن أبي عمرو، قاضي القضاة لدى نور الدين (المتوفى سنة ٥٨٥/١١٨٩) وكبير فقهاء الشافعية في عصره والذي بنى له نور الدين كما بنى هو نفسه عددا من المدارس باسمه في حلب وحماه وحمص وبعلبك ودمشق (٢١)

وخاف بنو الحنبل على وفهم أن يأخذ هؤلاء الوافدون وجاعوا يقولون لهم: «ما نخليكم في المسجد حتى نكتبوا خطوطكم أنكم من تحت أيدينا وأنكم نزلتم علينا ففعلوا. (٢٢)

ورأى شيخ المقادسة أن من المجاملة العظيمة أن يردوا الزيارة لابن أبي عمرو فمضى اثنان منهم (أبو محمد الموفق وأخوه الحافظ عبد الله) وحفظوا عليه مسألة من مسائل الخلاف في الفقه. وإذا كانت هذه الخطوة قد سرت القاضي فقد أثارت ثائرة آل الحنبل فأوحوا يشعمون عليهم بأنهم أصبحوا أشاعرة. وإذا علمنا مبلغ الخصومة الحنبلية الأشعرية في بغداد وأن الحنابلة يكفرون الأشعرية عرفنا خطر التهمة التي تعرض لها الشيخان المقدسيان اللذان انقطعا لذلك عن درس ابن أبي عمرو حتى افتقدوها....

وأراد آل الحنبل استغلال الفرصة لإخراج الجماعة من المسجد بحجة

(٢١) تراجم ابن أبي عمرو مبدولة في كتب التراجم (وانظر مثلا شذرات الذهب لابن الحنبل ج ٤ ص ٢٨٣) وقد عاش ٩٣ أو ٩٥ سنة.

(٢٢) القلائد ص ٣٦.

أ- المصاعب الصحيحة فقد كانت الظروف الصحيحة التي يعيشون فيها ضمن الجامع سيئة. وقد ذكروا أن الموقع «استرخى عليهم»، وهو موقع سهلي رطب على حافة الغوطة وأصابهم فيه الأمراض. والواقع أن سوء التغذية، والبرد القاسي في شتاء دمشق والذي لم يكن يكفى لدفعه عنهم وعن صغارهم ما يجتمع لهم أبو القاسم الصوري من صدقات الجباب والثياب (١٧)، بالإضافة إلى قلة الأعمار والموارد المعاشية بالنسبة لجماعة قروية تعودت العمل الزراعي الجبلي كل ذلك قد أسهم في تهديم المناعة الصحية للجماعة حتى مات منها في أواخر السنوات الثلاث الأولى لقامها ثمانية وعشرون نفسا (١٨) وحتى قام بعض أفراد الأسرة فهرب ببعض أطفالها من الوباء المرضي إلى بلدة داريا في الغوطة. وضاق صدر الشيخ أحمد، شيخ الجماعة، بهذا المكان واشتهى أن ينتقل إلى موضع غيره (١٩).

ب- المصاعب المذهبية فقد كان الغالب على أهل دمشق هو المذهب الشافعي وقد انتشر معه وخاصة منذ نزول السلاجقة بالشام (حوالي سنة ٤٦٠) المذهب الحنفي. أما المذهب الحنبل فقد كان محدود الانتشار ومع أن الشيخ أبا الفرج الشيرازي الذي نشره في فلسطين ورد دمشق وتوفى بها ودعم انتشاره فيها إلا أن الناس لم يقبلوا عليه. وكانت رئاسة المذهب فيها لأسرته: بنو الحنبل وبنو الميخا. ولم يكن في دمشق سوى مدرسة حنبلية واحدة قاسي آل الحنبل الكثير في بنائها (٢٠) بسبب مقاومة الشوافع لهم.. وهكذا كان من الصعب أن يقبل هؤلاء المقادسة في دمشق إلا أن يطى تقاهم وعلاقتهم العظيمة مع كبارها على حنبلتهم..

(١٧) القلائد ج ١ ص ٣٦.

(١٨) القلائد ج ١ ص ٣٤ و ص ٣٧.

(١٩) المصدر نفسه ص ٣٧. والمروج ص ٥.

(٢٠) الدارس ج ٢ ص ٦٥.



أضحت العاصمة السياسية والمسيكية للقوى الإسلامية في الشرق الإسلامي ونجم عن ذلك وعن سمعة نور الدين في التقوى والجهاد أنها أخذت تجذب الجيود والخطوة اجتذبا للمعلماء والفقهاء، وتوكلت الدولة الاقتصادية فيها ونشطت الحركة العلمية مع النمو الديموغرافي وظهرت في أطرافها خارج السور في الشمال والجنوب الغربي طلائع أحياء سكنية هامة .

لذلك كان من الصعب أن يفكر القادسية بالاستقرار في المناطق الملاصقة لدمشق، أو في غوطتها لأن أراضيها مملوكة لأهل دمشق ولا يملك القادسية، مع فقرهم، أنماها، وطاف أبو عمر ابن الشيخ أحمد وصهره في سواد (القوطنة) ببحرمان موضعاً (مناسيباً) ولعلهما كانا يبحثان عن أرض تعيش عليها هذه الجماعة القروية الزراعية. وأبعداً في الطلب حتى أطراف حوران حيث دهمت أحدها غارة فرنجية فهرب إلى أرض اللجاة من الحوف (٢٤) . ثم عاد الأثنان مخففين .. وأخيراً أجهت انظار القادسية، مرغمين على ما يظهر، إلى سفح قاسيون المطل على دمشق من الشمال، على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريباً من أسوارها ..

وهذا السفح أرض واسعة منحدرية ير نهر يزيد (أحد فروع بردى) عند ذيولها الأخيرة تشارك البساتين والخصرة إلى الجنوب والأرض القاحلة على سفح الجبل المساعد حتى القمة. ولم تكن هذه الأرض زراعية وإن كان بعض أهل البساتين المجاورة يزرعون على ماء المطر بعض جوانبها بالجير. ولكنها كانت أرضاً خلاء يقبر فيها بعض الفقراء موتاهم لأنهم لا يملكون ثمن القبور في المقابر الطيبة بدمشق .

وكان أهل دمشق إلى ذلك ينسبون إلى هذا السفح بعض البركة

أنهم صاروا أشاعرة شافعية والمسجد وقف للحنابلة واستعدوا عليهم السلطات ولكن شهادة ابن أبي عمرون وبعض رجال الحاشية لدى نور الدين بتقوى هذه الجماعة كانت كافية لكي يكتب نور الدين للمقادسة كتاباً رسمياً يتحول إلى الوقف اليهم .. وجاء ابن أبي عمرون اليهم يحمل بنفسه الكتاب و يسلم المسجد والوقف ..

وفرح القادسية لا الشيخ أحمد كبيرهم الذي ضاق صدره وقال : أنا هاجرت حتى أنافس الناس على دنياهم ؟ ما بقيت أريد أن أسكن ها هنا !! (٢٢) وزاد في ضيقه — على ما يبدو — تشييع بني الجبلي عليه وخوفه من تشويه صورته الدينية لدى الناس وهي رأسماله.

ج) مصاعب الجوار فان الجانب الشرقي من دمشق كله (وهو المجاور لمسجد أبي صالح) كان للنصارى يسكنونه منذ ما قبل الفتح (ولا يزالون إلى اليوم) كما كان حتى اليهود (ولا يزال) إلى الجنوب منهم «وكان أهل الباب الشرقي يخرجون إلى ظاهر الباب (في البساتين) ويشربون الخمر» ويحاول القادسية أن ينكروا عليهم ذلك فصار أهل الباب يكرهونهم ويحرضون عليهم العصيان لفرضهم بالحجارة ويشيرون لهم المتاعب .. ويجعلون اقامتهم مملوءة بالضيق .. (٢٣).

وهكذا تبلورت في خاطر الشيخ أحمد كبير القادسية آله قدامة أن يفير المنزل ولكن إلى أين ؟

## ٢ — القادسية ونشأة الصالحية :

كانت دمشق منذ صارت في يد نور الدين بن زنكي سنة ٥٤٩ هـ، قد



وعلى امتداد الضفة الشمالية من نهر يزيد فيما بين السفوح الجرداء وسلسلة القري والبساتين كان يتند شريط من الأرض القليلة الميل تسابير النهر وتعرض هنا أو تضييق هناك تاركة المجال لبعض الحياة النباتية والسكن. فمضة بعض الرقاع الزراعية المحلية وثمة، في تلك الآونة، بعض الأبنية المنفردة يحمل بعضها اسم «الأديرة» لأنها كانت من قبل معتكفا لبعض الرهبان: ففي الغرب: دير يعرف بدير الحوراني وكان يسكنه أبو العباس أحد الكهفي والشيخ عمارة وجامعة صغيرة. وكانت أرض الجبل في أيديهم يزرعونها ويقولون إنها للكهف. ثم إلى الشرق منه دار لبنت الفياح يسكنها جماعة. ودار للفقيه طرخان. وتنتشر هنا وهناك عدد من المساجد الصغيرة يقارب العشرة بعضها قديم وبعض مجانبى في هذه الفترة نفسها فوق القبور أو لبعض الزهاد (٢٧).

ومن الناحية الشرقية كان هناك دير لبعض الرهبان «وانفق أن أحدثوا شيئا فأخرجوا منه» فسكنه (حوالي سنة ٥١٥ - ٥٢٥) أولاد معبد بن مستفاد وأخوته وأقاربهم وهم من الحنابلة طلبه لهم الإمام عبد الوهاب ابن الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبلي وكان يزورهم فيه فعرف الدير «بدير الحنابلة». ويبدو أن بنى المستفاد هجروه إلى المدينة بعد ذلك فسكنه الشيخ ابن عمر عبد الرحمن القابري وأناس قليلون معه.

وكان ثمة مصلى (موقفه مكان جامع الحنابلة اليوم) ومسجد عتيق على نهر يزيد (قبلى جامع الشيخ محي الدين اليوم (٢٨) ولكن الموقع كان ما يزال في

(٢٧) مجموع المساجد التي كانت في المنطقة سواء على السفح أو بين البساتين أو على الشريط النهري يقارب ٢٥ مسجداً صغيراً. وبعد التفصيلات عنها لدى ابن عساكر (تاريخ مدينة دمشق ج ٢ قسم ١ تحقيق النجد) ص ٨٥ - ٨٩ وقائمه هامة فهو ماض هذه الفترة. وتفتوح خسة منها بين البساتين والقرى وثمانية في السفح أو على الدروب إليه والباقي حول الشريط النهري. وقد نقل ابن شداد في العلاقات الخطرة (قسم دمشق ص ١٤٧ وما بعدها) قائمة ابن عساكر ثم أضاف إليها. وانظر من أجل التفصيلات الأخرى في هذه الفترة: القلائد ج ١ ص ٣٨ و ٣٩.

(٢٨) القلائد ج ١ ص ٣٨ - ٤٢ وتجدها هناك بعض التفصيلات الأخرى للفترة كما نجد ذلك في المروج ص ٨ - ١٠.

والقدسية لأن فيه عدداً من الكهوف والمناظر أحيطت مع الأيام ببعض الفضائل الخرافية والأساطير فهذه مغارة الجوع (الجوعية) وتلك مغارة الدم، (دم هابيل) وهنالك كهف جبريل (حيث تلقى آدم الغراء منه بابه هابيل)، وهنالك (بيت أبيات) حيث سكن آدم أبو البشر. وفي أعلى السفوح مغارة الأربعين (وفيها دفن أربعون نبياً) الخ (٢٥) وقد اقيمت في هذه المواقع وعلى الدروب الصاعدة إليها بعض المساجد الصغيرة ويزيد عددها على ثمانية لكن المنطقة رغم «بركانها» كانت في تلك الفترة من أواسط القرن السادس الهجري من الأرض القفر لا يزرورها عدا العابرين إلا بعض الوحش (كالصباع والذئاب) وبعض اللصوص الذين يقدمون إليها من وادي التيم عبر الجبال لتخطف بعض العابرين ولتفردين وبيعهم عبيداً في بلاد الفرنجة (٢٦).

أما على الأطراف الدنيا من السفوح جنوبى نهر يزيد فكانت تمتد القري والبساتين الشمالية لغوطة دمشق والجنان النضرة يخترقها نهر ثورا موازياً ليزيد وعلى مسافة قليلة منه. ففي أقصى الغرب كان ثمة البربة ويليها نحو الشرق دير مران الذي ظل منزل الحكام العباسيين والفاطميين زمناً طويلاً قبل أن يهجر. وتليه قرية النيرب المغورة بالحضرة وفيها البيوت والجواسق حيث استشهد في الحملة الصليبية الثانية سنة ٤٥٣ بعض الشيخ المداغين عن دمشق فما تزال قبورهم ماثلة (أبو الحجاج يوسف بن درباس الفندلاوى وعبد الرحمن المالحول).

ومثلها قرية أرزة (وهي منطقة الشهداء اليوم) ثم تأتي قرية بيت أبيات (وهي منطقة طاحون الأشنان القديمة) ضمن البساتين وتنتهى السلسلة بقرية مقري (منطقة الحلالات والميسات إلى عهد قريب) وقرية الميطور (أسفل المدرسة الركبية بحى ركن الدين اليوم) ..

(٢٥) أنظر في ذلك ما ورد في: كتاب الاشارات إلى معرفة الزيارات للهروي وفضائل الشام للربيعي، ومسالك الإيصار لابن فضل الله العمري وفي القلائد، وفي المروج السنسية وتاريخ ابن عساكر وغيرها. وفي كتب فضائل الشام.

(٢٦) القلائد ج ١ ص ٣٩ و ٣٨ والمروج ص ١٠.



فكانوا يكترون من يعملون عليه. وقد عاونهم أبو عمر القابري وأهله فيه. فبنوا في السنة الأولى ثلاثة أبيات فقط وكانوا يقولون يكفينا بيت واحد. لكثرة الموت فيهم .

كانت الأبيات الثلاثة للشيخ أحمد وابنه أبي عمر وصهره محمد. وكان الخنز يحمل للمعالين في البناء من المدينة. ثم اضطروا أن ينقلوا المرأة الشيخ إلى الجبل لتقوم بأطعامهم... وفي جادى الآخر سنة ٥٥٤ (مارس - حزيران سنة ١١٥٩) أي بعد ثلاث سنوات ونيف من المقام بمسجد أبي صالح انتقلت أولى الجماعات المقدسية إلى سفح قاسيون. في السنة التالية صارت البيوت عشرة (٣١) متلاصقة ولكن سكانها كانوا على الرعب الدائم فلم يكن لجموعة البيوت باب، كباب دير الخوراني الجبى الجماعة وأولادها من الوحش ومن اللصوص وبخاصة «حرامية وادى التيم وكانت لهم شوكة ومنعة»! فأقاموا للبيوت بابا موحدا يفتح عليها... ودعا الناس هذه المجموعة السكنية الجديدة بدير الحنابلة! على الاسم القديم! لكن جماعة القادسة حلت معها اسم مسجد أبي صالح الذي كانت تنزله فكان الناس يدعونهم بالصالحية. «نسبة إلى صاحب ذلك المسجد لا على أنهم صالحون» (٣٢) لكن هذا اللقب الثالث الذي حملته الجماعة بعد «الجماعى» «والمقدسى» مالبث أن انسحب على البقعة التي نزلوها في سفح قاسيون لأنهم ظلوا يفضلون نسبة القادسة مع أسمائهم ..

وبالرغم من أن بعض السكان السابقين في السفح (كأبي العباس الكهفى) قد خافوا أن تتكاثر الجماعة وتملك الموضع هناك وتسلبهم الأراضي التي يزرعون إلا أنهم سرعان ما اطمانوا حين تبينوا أن هدف الجماعة لم يكن في الأرض والزراعة ولكن في العمل بالقلم... فقد تكاثرت الدور بالتدريج من حولهم وتكاثر عليهم الزوار والطلاب والهدايا. وبدأت الاوقاف تجس على «دير الحنابلة» وتزداد حتى كان منها، فيما بعد، قرية الهامة والاضاحي التي تقدمها

(٣١) في القلائد ج ١ ص ٣٧ - ٣٩ بعض التفاصيل الأخرى.

(٣٢) القلائد ج ١ ص ٢٥ و ٢٦.

تصرف بنى المستفاد ولم تكن الجماعة المقدسية تجهل سفح قاسيون وما فيه من مواقع التبرك. فقد زارته جماعات منهم ٢٢ مرة على الأقل حين دفعوا فيه ٢٢ من موتاهم الثمائية والمشرين. وكانوا على صداقة مع آل المستفاد ويعرفون من خلالهم قصة دير الحنابلة هناك. كما كان لأحد القادسة (عبدالرحمن بن أبي عبدالرحمن) «جنينة» فوق نهر يزيد عند الدير الشرقي وقد مات فيها هو وابنه الصغير (٢١) ولكن الجماعة لم تكن تفكر في ذلك الموضع لأنه ليس مجال الزراعة والرزق فلهذه الجماعة القروية. على أن ضغط الظروف أجبرها على القبول به... وأجبرها بالتالي ونتيجة لذلك على تغيير موارد عيشها وطرائق إنتاجها من الزراعة وهي براعاتها الأولى إلى العلم وهو مجالها الثاني الاضافى .

ولقد كان الفقيه طرخان يرغبهم في الموقع وآل الحنبلى يعرفونهم به (٣٠) كما كان آل المستفاد يدعونهم إلى ذلك. وكان أبو عبد الحنانى عبدالواحد بن معبد بن مستفاد يخرج مع الجماعة القدامية إلى سفح قاسيون لموتهم في دفن موتاهم فلما رأى ضيق صدر الشيخ أحمد بوقوعه في مسجد أبي صالح اقترح عليه أن ينظر في موضع دير الحنابلة فإن أعجبه بنى فيه... وخرج الشيخ فصلى هناك في المصلى العتيق وقال: ما هذا إلا موضع مبارك (٣١) وتقرر بذلك انتقال الجماعة المقدسية إلى سفح قاسيون. وإلى الموقع الذي يقوم فيه جامع الحنابلة اليوم وكان هذا يعنى في الوقت نفسه اختيار طريق العلم مورد للمعيش وهجر الزراعة نهائيا. وهكذا قدر لذلك الشريط من الأرض الجبلية الموازى لنهر يزيد والقطع تارة بحجاري السيول وتارة ببعض المزروعات البعلية والذي تنتشر فيه بعض المساجد المتفرقة والدور المتفرقة، أن تقوم عليه بلدة علم: الصالحية .

ولم يكن لدى القادسة لا المال الكافى ولا القوة على البناء ولا الخبرة به

(٢٩) القلائد ج ١ ص ٣٥.

(٣٠) القلائد ج ١ ص ٣٨ - ٣٩ وص ٢٥.

(٣١) القلائد ج ١ ص ٣٧.



وعلى أى حال فإذا بدأ منذ سنة ١١٥٩/٥٥٤ تاريخ جديد لآل قدامة والبقعة التي نزلوها من قاسيون وللمذهب الجليل في الشام فقد انتهت مرحلة التأسيس الأولى هذه لأجداد آل قدامة وولي الصالحية الذي أسسوه بوث الشيخ أحمد سنة ٥٥٨/١١٦٢ رأس الأسرة المهاجرة وله سبع وستون سنة .

### ٣ - ظهور آل قدامة وتوسع الصالحية :

بدأت بعد موت الشيخ أحمد المرحلة الثانية في تاريخ الأسرة وتاريخ المنزل الذي نزل من سفح قاسيون . وهي مرحلة تفاقم فيها توسع الحي وازدهاره مع بروز الأسرة واشتهار رجالها . وكان كل من الطرفين يبيع الآخر ثأله و يكسب في الوقت نفسه من نشاطه في عملية تبادل دورى متنامية .

وكما أن عوامل كثيرة ساعدت على توسع وتطور الصالحية وكذلك فإن هجرة متصلة من العناصر القروية الجماعية والقدسية والنبلسية ظلت ترفد الجماعة القدامية الأولى وتزيد في عددها ونشاطها، وإذا كان بعض هذه العناصر يأتي من فلسطين للدراسة والعودة فإن معظمها كان يأتي للاستقرار . حتى بعد أن تخورت فلسطين على يد صلاح الدين لم يرجع المهاجرون القادسية إليها بل ظلت حركة الهجرة بالعكس متجهة من فلسطين إلى الصالحية ، يحفزها إلى ذلك ما وجدته الجماعة القدسية من النجاح ومن الاحترام العميق ومن مورد العيش المأمون .

ويجب أن نسجل مقابل هذا ملاحظة أخرى هي أنه ليس في تاريخ الهجرات إلى الشام هجرة استطاعت أن تتميز وأن تنشيء بلداً لها يحمل اسمها وأن تفرض في هذا البلد خطها الجياتي كما فعل القادسية . فقد هاجر إلى دمشق الاكراد (أيام صلاح الدين وشكلوا حي الاكراد) وهاجر في العصر الحديث الشركس (في مطلع هذا القرن) والجزائريون (مع الأمير عبدالقادر) والارمن (هربا من المذابح الشركية أواخر القرن الماضي ومن بعده) وأهل كريت (ونزلوا حي

قوية ست زينة كل سنة.

يقول الحافظ ضياء الدين نقلا عن والدته : «انتقلنا إلى الجبل وكان الناس لم يكونوا يعرفون والدي (الشيخ أحمد) إلا بعد خروجه إلى الجبل فكان الناس يأتونه ويؤروه ويهدون إليه . وكان السلطان نور الدين يأتي إلى زيارته وما كنا نعرف شراء الفاكهة والبسطيح والنفح من كثرة ما كان يهدى إلينا» (٣٣).

وتبرع رجل يسمى أبا الحرم بن صعلوك المستقلائي فبنى للشيخ أحمد مسجداً اتخذته الشيخ مدرسة أيضاً وهو ما عرف بالمدرسة الصغيرة أو مدرسة ناصر الدين فيما بعد (غربي المدرسة العمرية وجنوبي الدين) وكان يزوره فيها نور الدين محمود بن زنكي» و ينتفع به «وقد أرسل ذات مرة مرة نجاره فأصلح خشبة في سقف المسجد . ويبدو أنه، بعد وفاة الشيخ، أعاد بناء المدرسة الأولى الذي لم يكن على ما يظهر متيناً وأضاف إليه الصنيع الذي صار يعرف بئر الشيخ، كما أضاف فزاناً للخبز. (٣٤).

(٣٣) القلاد ج ١ ص ٣٨ والنص في الكتاب فيه خطأ إذ يقول الحافظ ضياء الدين سمعت والدي يقول.. (والد هو عبد الواحد) والتحدث هو والدته ابنة الشيخ أحمد . أما أوقاف الديركها ابن طولون في القلاد ١٢٨/١

(٣٤) هناك نصان ماهران وتمازضان بعدد هذا البناء :

الأول لابن عساكر كتبه قبل موت الشيخ أحمد سنة ٥٥٨ هـ يقول : «...وجامع بناء أبو الحرم بن صعلوك المستقلائي لأحمد الجماعلي» (تاريخ مدينة دمشق ج ٢ رقم ١ تحقيق المنجد ص ٨٩).

الثاني لسيط ابن الجوزي (في مرآة الزمان ج ٨ قسم ١ - ط . حيدرآباد ص ٣١٤) يحكي كلام أبي عمر ابن الشيخ أحمد يقول فيه : «كان نور الدين يزور والدي في المدرسة الصغيرة الجاورة للدير ونور الدين بنى هذه المدرسة والصنيع والقرن فجاء مرة وكان في سقف المسجد خشبة مكسورة...»

ولما كان نص ابن عساكر دقيقاً حاسماً فقد رجح لدينا أن يكون البناء الأول للمسجد على يد المستقلائي وأن يكون نور الدين قد أعاد بناء المدرسة وبنى الصنيع والقرن بعد وفاة الشيخ أحمد تكريماً له ولكن يتابع ابنه أبو عمر فيها عمله التدريسي الذي استمر (قبل وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٩٩ هـ) حوالي ٢٥ سنة إلى أن جرى بناء المدرسة العمرية الواسعة وجرى الانتقال إليها.



كان ضفط الطلاب وتكاثرهم على المدرسة القديمة هو الذي دفع بابا عمر الى بناء المدرسة العمرية ويبدو أن ذلك كان فيما بين سنة ٥٩٠/٥٨٠ وأن بعض أهل الدين قد أعاناه على البناء، «وكان مكان المدرسة مقصبة» ويتفق ضفادع فشريح أبو عمر في عمل «مصنع» المدرسة (أي البئر جنوبى النهر) ثم عقد النهر (أي غطاه) وبنى المسجد وبنى عشر خلاوى للفقراء عقدا. وكانت المدرسة الى طرف الايوانين القبلى والشمالى. (٣١). بعد ذلك بسنوات، أى في سنة ٥٩٨ بدأ أبو عمر مشروعه البنائى الثانى: جامع الحنابلة (المظفرى) الذي كرس تحول الصالحية الى بلد دى «منبر».

وقد وقف أبو عمر مدرسته على اقراء القرآن وعلى الفقه. «فتعلم بها القرآن قوم لا يحصون» واستطالت سمعتها بصحة صاحبها كما استطالت شهرة أبى عمر نفسه بشهرة جامعة أخرى من العلماء أخرجهما الأسرة في تلك الفترة.

وقد أتم أبو عمر عمله العلمى الدينى بأن حول الجيل الناشئ كله في أسرته، وفي الأسر التي هاجرت معها من قراها الأولى، الى جيل من العلماء ومن طلبية العلم وماليت هذا الجيل أن أبرز عددا من كبار العلماء جاءوا ليؤكدوا سمعة وقوة المؤسسة الحنبلية الناشئة على جبل قاسيون، وليجروا في الوقت نفسه الأجيال التالية من الأسرة الى الخط الانتاجى - المعاشى نفسه: خط العلم. وهكذا بينما كانت المدرسة تقوى وتكبر كانت الأسرة القدامية مع أقرانها الملتصقين بها تقدم خسة أو سبعة رجال لفتوا الانظار العلمية لا في الشام فحسب ولكن في بغداد وخراسان وفي مصر.

وإذا تركنا جانبا منهم أمثال: عماد الدين ابراهيم (المتوفى سنة ٦١٤) وشمس الدين أحمد البخارى (المتوفى ٦٢٣) وبهاء الدين عبدالرحمن (المتوفى ٦٢٤) وجدنا أن ثلاثة منهم على الأقل صاروا أقطاب الفكر الحنبلى على العصور:

(٣١) الثلاث ج ١ ص ١٦٩.

المهاجرين الذي سمي باسمهم آخر القرن الماضى) وهاجر الليثيون والجزائريون.. واندجحت هذه المجرات في البوينة الدمشقية (كما انصهر القادسة أيضا) ولكن دون أن تترك أى أثر واضح في التاريخ العمرانى أو الاقتصادى أو الفكرى لدمشق كما ترك القادسة.

كان محور الحركة بالنسبة للأسرة القدامية: بابا عمر محمد بن الشيخ أحد وهو الذي رسم للجماعة القديسية خطها العلمى فما برحت تسير عليه عدة قرون. ولد في جماعيل سنة ٥٢٨ وهاجر مع والده الى دمشق سنة ٥٥١ وحفظ القرآن وأخذ الحديث عن شيوخ دمشق ثم مصر وقرا النحو هناك على ابن برى وجمع الى معرفة الفقه والفرائض والنحو الزهد والعمل والطبية. يقول أخوه الموفق عنه «كان شيخنا. ربانا وأحسن الينا.. وهو الذي هاجر بنا وسقنا الى بغداد.. وبنى الدبر.. ثم زوجنا وبنى لنا الدور. وكفانا هموم الدنيا..» ولقد ظل رأس الجماعة نصف قرن حتى توفى سنة ١٢١٠/٦٠٧ وقدم بعلمه وسلوكه وتقاه وكثرة صباه وعبادته واشتراكه في الجهاد مع صلاح الدين (و يوم فتح القدس) المثل الذي احتذاه رجال الاسرة من بعد كما كان النموذج المرتضى من الرجال في ذلك العصر حتى لقد نسبت اليه الكرامات العديدة (٢٥) واعتبره بعضهم «قطب الوقت» في السنوات الأخيرة من حياته وحين توفى خرج في جنازته عشرون الف مشيع فيهم كل كبار القوم ولولا بعض قواد الجند يجرسونه بالسيف والدبابيس ما وصل قبره شيء من أكفانه التي كان الناس يقتطعون منها للبركة.. ولعل أهم أعماله أنه أعطى الجماعة القديسية مؤسسة علمية حنبلية تحورت حولها نشاطات رجال الأسرة كما اجتذبت اليها المريدن والطلاب فقد أنشأ بجانب مدرسة أبيه الى الشرق على نهر يزيد مدرسة ماتزال اطلالا الى اليوم تحمل اسمه هي المدرسة العمرية.

(٢٥) أنظر هذا كله مع ترجمته لدى ابن رجب - ذيل طبقات الحنابلة ٥٧/٢ - ٦١ فهناك روايات كثيرة عنه وقد ذكر ذلك قبله سبط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ٢ ص ٥٤٧ - ٥٥١ والاثان آخذا عما ذكره القياة القديسي في سيرته.



عليها بعض أهل الجبل وأنشأ فيها مكتبة واسعة وقف عليها كتيبه. وقد اكملت هذه المدرسة مهمة المدرسة العمرية التي اهتمت بقراءة القرآن والفقه كما دعمت مركز المقادسة العلمي والديني وأفاضت في شهرتهم وثأرتهم. ولا شك أن آلا قدامة إذا كانوا قد أعطوا هذا المراكز العلمية الذي أقاموه في قاسيون الكثير من جهودهم الفكرية فإن ما لقوه من التشجيع الكبير ومن الاحترام ومن التكرم والعون المادي على مختلف المستويات كل ذلك قد دفعهم بالقابل الى المزيد من العمل والانتاج في الميدان الذي اختاروه .

وهكذا بينما كانت سمعة آل قدامة في التقى تزداد وشهرة مدرستهم وحلقاتهم في العلم تنتشر وتلازمهم في القرآن والحديث والفقه يكثررون بالألوف، كانت الأموال والالواقف والهبات بالقابل تندفق على الجماعة القديسة وعلى المدرستين، وكانت الأبنية حول دير الجنبلة وعلى الجبل تنتشر وتكثر حتى أصبحت البقعة في أقل من نصف قرن، بلدة كاملة ذات أسواق ومنازل وسكان ومساجد ومؤسسات وأفران وحمامات وحياة عامة واكتفاء بذاتها عن مدينة دمشق. (٤٠٠)

والواقع أن تأسيس الصالحية بجوار دمشق قد استجاب لدون أن يدرى المقادسة إلى مجموعة من الحاجات فرضتها ظروف ذلك العصر وعملت على إيجادها مجموعة من العوامل المتباينة ظهرت آثارها في دمشق بشكل تكاثفات وتحويلات ديموغرافية عتيقة أخذت في تلك الأيام بالذات تزداد ضغطاً وضوحاً في تلك المدينة الدهرية المحبوسة ضمن سورها المحدود .

أ) العامل السياسي : وهو أهم العوامل وأقواها أثر فقد كانت الفترة التي

(٤٠) ياقوت (مجموع البلدان ٣/ ٣٩٠) - يعقها حين ألف معجزة حوالي سنة ١٢١١ أي في أواسط العهد الأيوبي بأنها: «قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في حلف جبل قاسيون من غوطة دمشق وفيها قورة جامعة من الصالحين ويسكنها أيضاً جماعة من الصالحين لا تكاد تخلو منهم واكثر أهلها ناطلة بيت المقدس على مذهب أحد بن حنبل».

١) تقى الدين عبد الفتى بن عبد الواحد بن علي بن سرور (ابن خالة أبي عمر) (ولد بجما عيل سنة ٥٤١ وتوفي سنة ٦٠٣/١٢٠٣) الذي أضحى من كبار الحفاظ ورواة الحديث وقد سموه (حافظ الوقت ومحدثه). ترك من المؤلفات خمسة وأربعين كتاباً بعضها في عشرين مجلداً (مثل نهاية المراد من كلام خير العباد) وبعضها في عشرة (الكمال في معرفة الرجال) (٣٧).

٢) موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة (شقيق أبي عمر) (ولد بجما عيل سنة ٥٤١) وتوفي بقاسيون سنة ٦٢٠/١٢٢٣) وهو شيخ الفقه الحنبلي بكتابة (المنقى) ذى المجلدات العشرة. منحه الناس لقب «شيخ الاسلام» و «إمام الأئمة» ونسبوا اليه بدوره الكرامات بل المني على الألاء. ومؤلفاته تقارب الثلاثين (٣٨).

٣) ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن السمدى (ابن شقيق أبي عمر) (ولد بدمشق سنة ٥٦٩ وتوفي بها سنة ٦٤٣) وهو حافظ الذي اعتبره بعضهم «من العلماء الربانيين» في الثقة والورع والزهد حتى سماه الذهبي «محدث الشام وشيخ السنة» (٣٩).

وقد ترك ما يزيد على عشرين مؤلفاً، وأنشأ على باب دير الجنبلة من الشرق، ونتيجة لتزايد ضغط الطلبة (دار حديث) للرباء الوافدين أعانه

(٣٧) انظر سيرته المطبوعة في ابن رجب - ذيل طبقات الجنبلة ج ٢ - ص ٥ - ٣٤. وله تراجم كثيرة متعددة في مختلف المصادر منها اليافعي - مرآة الجنان (جذر آبار سنة ١٣١٨) ج ٣ ص ٤٩٩ - ٥٠٠ ابن الحنبلي شذرات ٢٤٥/٤ - ٢٤٦، ابن كثير البداية والنهاية ج ٢٨/١٣ - ٢٩ ابن قفري بردي - النجوم الزاهرة ١٨٥/٦ - ١٨٦.

(٣٨) انظر أيضاً ترجمته المطبوعة في ابن رجب ج ٢ ص ١٣٣ - ١٤٩، ولدى أبي شامة - ذيل الروضتين ١٣٩ - ١٤٢ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ص ٩٩ - ١٠٠ وابن العماد الحنبلي شذرات ٨٧/٥ - ٩٢، ابن شاكر فوات الوفيات ٢٠٢/١ - ٢٠٤، واليا فعي - مرآة ج ٤ ص ٤٧ - ٤٨.

(٣٩) انظر ترجمته كذلك في ابن رجب ج ٢ ص ٢٣٧ - ٢٤٠، والذهبي - تذكرة الحفاظ ١٩٠/٤ - ١٩٢ وابن شاكر الكتبي فوات الوفيات ٢٣٨/٢ وابن كثير - البداية ١٢٦/١٣ - ١٧٠ والعصدي - الوافي ٦٥/٤ - ٦٦.



سكنى يستوعب ذلك التكاثر السكاني المتزايد ولابد من مؤسسات تقدم له الخدمات المأشقة والروحية والعلمية وتنظم علاقاته الانتاجية.. ولابد من حركة عمرانية وثقافة واقتصادية ترافق كل ذلك وكانت الصاحلية واحدة من خمس مناطق أفرغت فيها دمشق تزايدها السكاني (الشاغور وقصر جراح في الجنوب الغربي من سور المدينة والفرايس خارج السور من الشمال وهذه الأحياء الثلاثة ملاصقة لدمشق. ثم قرية المزة غربي دمشق. ثم هذا البلد الجديد البعيد في الشمال الغربي: الصاحلية) (٤١).

وإذا كانت المؤسسات الدينية والعلمية والاقتصادية في البلد الأم، دمشق قد ابتلعت البقاع الثلاث الأولى ومنعتها من البروز الشديد ومن التميز بكيان خاص فإن انفصال الصاحلية من جهة وبعدها النسي عن المدينة وقديمة جبلها ثم المؤسسة العلمية التي حل آل قدامة عبء تألقها كل ذلك قد أسهم في نوه هذه الموقع السكنى الجديد وازدياد عمرانه بسرعة غريبة بالنسبة لذلك العصر.

على أن عوامل أخرى (محلية وعامة) أسهمت بدورها في ما أخذته الصاحلية (وأسرة المقادسة) من مدى توسع سريع وفي منحها التميز الديني والبلداني الخاص بها وفي المزيد من لفت الأنظار إليها والاقبال على سكانها. وهذه العوامل كانت تنعم الأولى بالطبع وتعطيها المنى الحقيقي.

د) **العامل الديني**: وكان له في هذا المجال وجهان أحدهما محلي موضوعي والثاني عام متصل بالمعصر وكلاهما تابع من عملية الدفاع: فأما المحلي فهو ناتج عن الطابع الديني المزوج الذي التقى فيه تدين القادسة مع قدسية جبل قاسيون.

(٤١) راجع ابن عساكر وصف مدينة دمشق في القسم الأول من الجزء الثاني (تحقيق المنجد - طبع دمشق ١٩٥٤) وابن شداد الاعلاق الخطيرة (قسم دمشق تحقيق الدهان) والنسبي في المدارس في تاريخ المدارس (تحقيق جعفر الحسني - دمشق سنة ١٩٥١) وانظر كذلك في المورعة الإسلامية (الطبعة الجديدة) وانظر المصبرات التي أرفقت بخلاف هذه الأبحاث أيضاً.

امتدت من أواسط القرن السادس الهجري حتى مطلع السابع فترة نشاط كثيف في مختلف جوانب الحياة السياسية والعسكرية والسكانية والعلمية والاقتصادية لم تعرفه الشام منذ قرون. تلك كانت أيام نور الدين ثم صلاح الدين ثم الملك العادل من بعده وتوحيد الجبهة الإسلامية ثم معركة حطين واسترداد القدس ومعظم فلسطين ثم الحروب الأيوبية حتى الحملة الخامسة والسادسة.. وقد ترك هذا النشاط في الدرجة الأولى في دمشق لاسبب توسطها وربطها بين بغداد والقاهرة فقط ولا بسبب قيامها في قلب الجبهة الصليبية أيضاً وعلى أبعاد محدودة ومتقاربة من مختلف مواقعها ولكن أيضاً وأيضاً لأن شأن القاهرة في المقاومة تضاعف في العهد الفاطمي الأخير حتى انقضت خلافتها وصارت جناحاً من أجنحة صلاح الدين ولأن دور الخلافة البغدادية كان بدوره ثانوياً في المعرك السياسي والحربي يومذاك مما يمكن لدمشق ان تصبح القلب السياسي العسكري للشرق الاسلامي خلال هذه الفترة.

ب) **العامل الاقتصادي**: نتيجة هذا التحول الجذري في مقدرات دمشق، تحولت المدينة الى مركز اقتصادي شديد الحيوية فهي الآن مركز السلطان وحاشيته وامرائه وجنده ومما ليكهم وما يتبع ذلك من موارد مالية واسعة وحاجات حيوية ملحة وتبذير في الكماليات والترفيه والذخ وانفاق مترادف في الحاجات اليومية وزيادة في الخدمات وكشافة مطردة في حركة التوافل والتجارة وتنوع في الحرف وتزايد في أعداد الحرفيين واتساع في أسواق الغذاء والملبس والأثاث والسلاح والكماليات بالإضافة الى حاجات العمران والبناء وما يتصل به. كل ذلك زاد في غنى وفي تعقيد البنى الاقتصادية وحركتها في دمشق وزاد في الوقت نفسه في علاقاتها وفي حاجتها الى التوسع.

ح) **التكاثر الديمغرافي**: وقد نجم عن ذلك كله تكاليف في النزوح السكاني الى دمشق لامن الجند والعلماء وطالبي الوظائف أو العلم ولكن أيضاً من التجار والصناع الذين يجذبهم النشاط الاقتصادي. والحروب في العادة تخلق اللون النشاطات وحاجات الجند والتحصين والتسلح التي لا تنتهي. فكان لابد من مدى



الدفاع وإيقاد نار الجهاد في المصدر لضمان البقاء (هل نذكر باترى كثرة ظهور كتب الجهاد في هذه الفترة؟) ولذلك كله كان إنشاء الصالحية يؤدي وظيفة أساسية في جبهة الجهاد يومذاك و يلبي حاجة من حاجات المصمر. وإذا لم تنشأ بوصفها مركزاً اقتصادياً وسياسياً أو عسكرياً فقد نشأت في الواقع بوصفها مركز دفاع ومقر مقاومة وتعبئة معنوية ضمن إطار العمل العسكري العام وأكملت لدمشق (السنية) جناحها الجنبيل الذي يعمق وجودها وأثرها الاسلامي .

وهكذا بينما كانت دمشق تأخذ صفات المدن الكبرى كانت الصالحية تتحول بجهود آل قدامة خاصة وسمعتهم وفي إطار الجور السياسي الفكري العام الى «مدينة علم» تتلىء بالمدارس - والعلم يومذاك يعنى علوم الدين - والى منطقة «بركة» ودين وقُديسيات و«تعبئة دينية» تكثرت فيها المساجد والزوايا والترب . وتنافس في ذلك كله المدينة الأم دمشق، وقد تسارع ذلك بصورة خاصة وكثر بعد مطلع القرن السابع. أما قبل ذلك فكانت مرحلة الاعداد ومرحلة تكون المجتمع الحضري الذي سوف يحتضن النشاطات المختلفة. لهذا لا نجد في الصالحية قبل سنة ٦٠٠ سوى:

١) جامع واحد هو جامع الجنبيل (الذي عرف فيما بعد بالجامع المنظري أو بجامع الصالحين أو بجامع الحناينة وما يزال قائماً الى اليوم يحمل هذا الاسم نفسه) «وقد شرع أبو عمر القديسي ببنائه سنة ٥٩٨ على نفقة (شيخ ذى غنى) هو الشيخ أبو داود عاسن (أو على) القامي حتى بلغ البناء مقدار قامة ففقد ما كان معه . وعلم الملك المنظر كوكبوري بن زين الدين صاحب اربل في العراق بأمر فأرسل مع حاجبه شجاع الأربلي ثلاثة آلاف دينار لاتمامه وألف دينار ليساق بها الماء إليه من قرية برة (أو من بردى؟) وتعذر سوق الماء فصنع للجامع بئراً وعليه بفل يدور ووقف عليه الأوقاف (٤٦). وقد عتبر بناء الجامع عن تحول الصالحية من مجتمع سكانى

(٤٦) ابن كثير - البداية والنهاية (ط . المعارف والضريروت ١٩٦٦) ج ١٣ ص ٣٢ وص ١٣٦ وابن عبد الحادي نهار المقاصد في ذكر المساجد (ط مكتبة لبنان ١٩٧٥) ص ١٥٢ و ٢٠٩ والسيمي - الدارس في تاريخ (ط الجزائر ديمق - ١٩٥١) ج ٢ ص ٤٣٥ - ٤٣٦، وابن

ويتضح دور آل قدامة في سمعتهم العلمية الدينية ودور قاسيون. وما ينسب اليه من البركات في بروز الصالحية وتطورها السريع حين تقارن بينها وبين ضاحية المرة المماثلة لها على السفوح في غربي دمشق فقد ظلت مجرد قرية كبيرة لا تتميز بغير الكثرة الديموغرافية، بالقياس الى تطور المؤسسات العامة والدينية في جبل الصالحية . وعلماء المرة لم يدرسوا و يبرزوا فيها ولكن في دمشق . ولم يكن غريباً مع الحماسة الدينية التي أعقبت فتح القدس، خاصة، ومع الاخطار الداهية التي أخذت بعد ذلك تهدد قلب العالم الاسلامي في الشام من الشرق (المغول) ومن الغرب (الصليبيين) أن يصبح مركز كالركز الذي اقامه آل قدامة للمعلوم الدينية في سفوح دمشق الشمالية مركز اشاع روحى واسع يجتذب الكثير من الأساتذة والطلاب ويحظى باعجاب الناس على السواء .

وأما من الناحية العامة المتصلة بأجواء المصمر وحاجاته فقد كان اللجوء الى الدين والتمتع فيه والمبالغة في الورع والمعرفة الدينية جزءاً من أعمال المقاومة وسبيلاً من سبل تأصيل الجهاد وشنن النفوس بالقيم والمغويات. ويجب أن نضيف الى هذه كله دون شك أن الأتابكة والأيوبيين وسموا دمشق بسمه خاصة حين جعلوها موقفاً حروبياً - دينياً مما . ولا كانت سياستهم متجهة بكاملها الى نصرة الاسلام السننى سواء بحاربة المسلمين خارجياً أو بحاربة التشيع (الفاطمي وغيره) داخلياً لذلك نجدهم يشجعون كل النشاطات الدينية السنية، هم وامراءهم، و يؤيدون وجود المزيد من شيوخ الدين، ومن بناء المدارس للمعلم والمساجد والزوايا والربط للمبادة .

كان المصمر عصر يقظة «السنة» وتنبه روح الدفاع والجهاد. ومع انتقال المركز السياسي العسكري الى دمشق تجمع فيها أيضاً رجال جميع المذاهب السنية الشروقية . ولما لم يكن للمذهب الجنبيل من مكان مريح في دمشق مع سيطرة الاسلامى احترام مؤسستين هما: الدينية والعسكرية، عملت جميع المذاهب السنية في خطط دفاعي واحد داخل خارجي همة، إيقاظ الحيوية الدينية في الناس من أجل



الدين مجموعة متزايدة من جنده الأكراد البطالين (الذين تقاعدوا عن العمل في الجندية) ومن النازحين (وماتزال بقاياهم موجودة في الحى المعروف حتى اليوم بحي الأكراد) وسكنها العديد من العلماء من مختلف البلاد ومن مختلف المذاهب (وبخاصة من الأحناف) وتكاثف فيها طلاب العلم والمتصوفة والزهاد. وقدم مع هؤلاء وهؤلاء مجموعات من الحرفيين وصمال البناء والخدمات العامة....

وبالرغم من أن هذا النشاط «الصالحى» كان جزءا من نشاط دمشق العام وقسما متما له بسبب ماعرفته دمشق في العهد الأيوبى من مكان سياسى وحرى واقتصادى ودينى ومن صلات تجارية منظمة مع التجارة الإيطالية أيام الحادل ثم المعظم ثم الأشرف ومن تطور في صناعة الزجاج المذهب والفنون المعمارية. والجلود والورق والبروكاد الحريرى والنحاس المطعم بالنفضة وفي الفنون المعمارية. بالرغم من ذلك فقد تميز نشاط الصالحية عامة بأمرين مترابطين: العلم والعمران الدينى.

وإذا امتد العهد الأيوبى في دمشق الى ما بعد أواسط القرن السابع بقليل فإننا نلاحظ أن الصالحية قد عرفت خلال هذه الفترة الكثير جدا من العلماء المستقرين فيها أو الزائرين لها ومن الطلاب المنتفعين فكانت - وظلت فيما بعد - خلية علم كما تميزت أبنيتها الدينية العلمية بالرحابة والتوسع والاطلال الرائع على غرطة دمشق عما زاد في الإعجاب بها والتألق في بنائها. وقد ظهرت بها في العصر الأيوبى :

## ١) أربع دور للحديث تقليدا لما ظهر منها في دمشق المدينة منذ عهد نور الدين :

— دار الحديث الضيائية التى أنشأها ضياء الدين القندى وكانت تسمى دار السنة أيضا.

— دار الحديث الأشرفية (٨) القندية وقد بناها الملك الأشرف مظفر الدين موسى (٤٨) القلائد ج ١ ص ١٥ - ١٠٢.

صغير أو قرية محدودة الى جماعة منظمة وبلد واسع يستحق اقامة منبر له، منفصل عن منبر المدينة المجاورة دمشق.

(٢) مدرسة واحدة هي المدرسة العمرية .

(٣) أربع ترب (قبور) لكبار الدولة. وقد بدأ هذا التقليد ببناء المدافن الفخمة في الصالحية عماد الدين (٢٣) أحد أمراء نور الدين وصاحب بعلبك وتدمر الذى بنى تربة بنيت في الجبل (و بقاياها موجودة في التربة) وكان طبيعيا، مع سمعة قاسيون القدسية وجفاف تربته و بدء الاتصال التامادى معه والعمران أن يكون مما يفكر به الكبراء اقامة المدافن الفخمة ذات القباب فيه وهكذا لحق العماد في بنائها حتى أواخر القرن أربعة أخرون فكانت : تربة فتح الدين أبى طالب سنة ٥٦٨ (٤٤) ثم تربة عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنروز و تبة نور الدين ثم صلاح الدين سنة ٥٨١ (٤٥) ثم تربة الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاشين المتوفى سنة ٥٨٧ (٤٦) وقد بنتها له أمه ست الشام (٤٦) بنت أيوب (أخت صلاح الدين) ثم تربة شجاع الدين طغرل بن جندر الملكى الناصري المتوفى سنة ٩٥٤ (٤٧).

وما كاد القرن السابع يطل حتى تحولت الصالحية الى ورشة عمران ونشاط اقتصادي - علمى. فقد توضع في شرقها خاصة منذ أواخر عهد صلاح

— شداد — الاعلاق القطيرة (قسم دمشق) ص ٨٩ وابن كان المروج السنية ص ٣٩ - ٤٤ ونلاحظ أن المصادر تختلف في مصدر جلب الماء من بردي أو من قرية برزة. والأرجح أنه من قرية برزة ولذا ذكر خيرأ قد يفيد في هذا المجال أورد ابن عساكر (ج ٢ قسم ١ ص ١٦٦) يقول: إن المأمون سير قنطرة من ماء منين الى معسكره في دير مران، و قرية منين واقعة خلف برزة في الجبال ويصل بينهما واد فيه مياه. و برزة في شرق جبل الصالحية عند آخر هذا الوادي ودير مران في غربي الصالحية. وبين برزة والدير السفح الذى بنيت عليه الصالحية.

(٤٣) أبرشامة. الروصتين ج ١ ص ١٨٠ والقلائد الجهرية ١ ص ٢٢٦.

(٤٤) القلائد ج ١ ص ٢٣٣.

(٤٥) القلائد ج ١ ص ٥٥ والتربة ماتزال موجودة وبنائها الجامع الذى بنى حولها في أيام الذهبي المروج (حوالي سنة ٧٣٠ - ٧٤٠) ويدعى الى اليوم الجامع الجديد في آخر قلعة حمام القمام.

(٤٦) القلائد ج ١ ص ١٨٧.

(٤٧) القلائد ١/٢٣٥.



(٣) ثلاث عشرة مدرسة : وكانت اثنتان منها للشافعية واثنان للحنابلة وتوسع مدارس للاحناف. والسبب في كثرة المدارس الحنفية هنا أن معظم الامراء والاكبراء وهم من التركاء كانوا على المذهب الحنفي في الوقت الذي كانت دمشق فيه على المذهب الشافعي. فوجه الاحناف مجاهم الجوى إلى الصلحية.

وهذه المدارس هي :-

— المدرسة الضيائية وقد أنشأها عاين بن عبد الملك (توفي سنة ٦٤٣) وجعلها وقفا على من يكون «أمير الحنابلة» (٥٤).

— مدرسة الصاحبة ربيعة خاتون بنت أيوب (أخت صلاح الدين) وقد بنيت سنة ٦٢٨ للحنابلة وتوفيت صاحبها سنة ٦٤٣ (٥٥).

— المدرسة البهنسية أنشأها أبو الأشبال الحارث البهنسي وزير الملك الأشرف موسى للفقهاء الشافعي وقد وقف عليها كتبه مع أوقاف كثيرة ودفن بها حين توفي سنة ٦٢٨ وكان من مدرسيها ابن خلكان (٥٦).

— المدرسة الأتابكية التي أنشأها تركان خاتون بنت اتابك الموصل وزوجة الملك الأشرف موسى وقد وقفها حين توفيت سنة ٦٤٠ (٥٧) وقد درس بها بين من درس العلامة الأرموي، وبها الدارين السبكي.

وأما المدارس الحنفية التسع فهي :

— المدرسة الجر كسية أنشأها الأمير فخر الدين جهار كس أحد قادة صلاح الدين ودفن بها سنة ٦٠٨ وماتزال موجودة و يسمى باسمها الحى التي هي فيه (٥٨).

— المدرسة المقدمية (البرانية) وقد أنشأها الأمير يوسف بن المقدم سنة (٥٩) ٦١٨ (٥٩)

(٥٤) القلائد ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥.

(٥٥) القلائد ج ١ ص ١٥٦ — ١٦٣ وللصاحبه تراجم عديدة منها لدى ابن خلكان وابن كثير والصفي.

(٥٦) القلائد ج ١ ص ١٢١ — ١٢٤.

(٥٧) القلائد ج ١ ص ١٠٢ — ١٠٣.

(٥٨) القلائد ج ١ ص ١٣٥ — ١٣٨.

(٥٩) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٠ — ١٤١.

بن الملك المعادل الأيوبي سنة ٥٢٩ للحافظ عبد الله بن تقي الدين عبد الغني بن عبيد الواحد المقدسي (٤٩). الذي ولد سنة ٥٨١ ورحل في الآفاق يطلب الحديث في العراق وخراسان ومصر والحرمين واشتهر بالورع والحفظ وشارك في الجهاد وقد توفي قبل الفراغ من بناء المدرسة سنة ٦٢٩ التي استمرت للحديث من بعده.

— دار الحديث العامة: وقد بنيتها في غربي قاسيون العامة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي وأوقفها على أهل الحديث وكانت محدثة ولها مؤلفات كما كانت من أهل اليسار الكثير وقد تزوجها الملك الأشرف صاحب حمص (٥٠).

— دار الحديث الناصرية: وقد أنشأها سنة ٦٥٤ الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي بن صلاح الدين الأيوبي ملك دمشق وجعل فيها رباطا وتربة له فلم يدفن بها لأنه قتل في سنة ٦٥٩. بيد المول (٥١).

## ٢ جامعات جديدة:

جامع الماردانية: بين البساتين على نهر ثوراجنوب الصلحية (وهو في الجسر الأبيض اليوم) وفيه المدرسة الماردانية أيضا. وقد أنشأها أختا خاتون (بنت قطب الدين صاحب ماردن) زوجة الملك المعظم صاحب دمشق. أنشأت المدرسة والجامع سنة ٦١٠ ووقفته صاحبه سنة ٦٢٤ (٥٢)

— جامع الركنية: وهو في شرق الصلحية فوق قرية الميطور أنشأه ركن الدين منكورس الحنفى وأوقف عليه أوقافا كثيرة وجعل لنفسه فيه تربة دفن فيها وما يزال الجامع قائما. وعلى اسم صاحبه يسمى الحى كله اليوم باسم حى ركن الدين (٥٣).

(٤٩) انظر ترجمته لدى ابن رجب قبل طبعات الحنابلة ٩٥/٢ — ٩٧.

(٥٠) المصدر نفسه ١ ص ٨٤ — ٨٥.

(٥١) القلائد ج ١ ص ٨٨ — ٩٣.

(٥٢) القلائد ج ١ ص ٦١ — ٦٢ وابن عبد الهادي شمار القاصد ص ٢٤٩.

(٥٣) القلائد ج ١ ص ٤٩ — ٥٢ محمد بن كنان — المروج السنسية ص ٢٧ ابن عبد الهادي — شمار القاصد ص ٢١٨ و ١٤٩.



كى توارى المدينة الأم وقد أنشأه الأمير سيف الدين بن يوسف القيمرى الكردى المتوفى سنة ٦٥٤ وأوقف عليه الأوقاف الواسعة وهو ما يزال قائما الى اليوم بواجهته الرائعة (بحوار جامع الشيخ محى الدين بن عربى الى الغرب) وبالقرب منه تربة الأمير نفسه الذي أعطى اسمه للحى باسم الشيخ قيمر. يقول ابن عبدالمادى عن المارستان أنه «ليس في الدنيا أحسن منه» وهو يطل على بساتين الصالحية ونهر يزيد تحته وفيه في صدره ايوان عظيم وعلى طرفيه قاعتان واسمتان تشرقان على البساتين وفيه قاعتان أخريان للمسهولين من المرضى: قاعة للرجال وأخرى للنساء وحاصل في شرقه معبد للأدوية من شرابات ومعالجات وأشياء (أى أدوية العين) وفي جانب ذلك مطبخ للمنزوات (طعام المرضى) وفي غربه قاعة للمجانين وبجوارها حاصل للفلال التي ترد اليه من أوقافه الكثيرة. وفي وسطه بركة واسعة يأتيها الماء بناغورة مركبة على نهر يزيد فهي لا تنقطع عن الدوران. وكان للمارستان طبيب وكحال وشراباتي وعامل وشارف (مدين) وخدم للرجال والنساء ومخفات لحمل المرضى.

(٥) بدء انتشار زوايا الصوفية: وقد تنبه الزهاد والصوفية الى موقع الصالحية وبركانه وديب العمران فيه فبدأ في هذه الفترة الأيوبية انشاء الزوايا فيه وبعد منها فقط أربع زوايا: الزاوية الملكية التي بنيت سنة ٦١١ تحت كهف جبريل والغرثية قبيل سنة ٦٢١ والزاوية الديورية قبيل سنة ٦٢٩ والأرومية سنة ٦٣١ التي تفرقت في الصخر (١٨) وكان لكل واحدة منها الزاهد الذي اشتهرت به بكراماته. لكن هذه الزوايا سوف تزداد الى عشر قبل نهاية القرن السابع. وكان لهذه الزوايا أوقاف وبعضها كان من الغنى الوفى بحيث يقدم الأطمعة للفقراء في بعض أيام الأسبوع وفي رمضان والعديد من كالأروية الملكية.

(٦) اعداد من التربة الفخمة: ونصف التربة التي أقيمت في الصالحية انما بنيت في العهد الأيوبى (٣٢ من ٦٤ تربة) وقد بنى منها ماين سنة ٦٠٠

(٦٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.  
(٦٨) انظر القلائد ج ١ ص ٢٠٧/١٩٧/١٩٣/١٩٢ بالترتيب.

— المدرسة المظفمية غرب الصالحية وقد أنشئت سنة ٦٢١ بناها الملك العظيم

عيسى صاحب دمشق وكان مولما بالفتنة والأدب والشعر (١٠).

— المدرسة الشبيلية وقد بناها على جسر نهر ثورا سنة ٦٢٣ الأمير الطواشي شيل

الدولة الحسامي ودفن فيها سنة ٦٢٦ (١١).

— المدرسة العَلَمِيَّة في أقصى شرقي الصالحية بناها الأمير علم الدين المظفى

سنة ٦٢٨ وكان فيها عشرة قراء مرتب لهم خبز يومية (١٢).

— المدرسة البيطورية وكانت في جوار العملية الى الغرب وقتتها فاطمة خاتون بنت

السلار سنة ٦٢٩ (١٣).

— المدرسة القاهرة وكانت على حافة نهر يزيد غربى المدرسة العمرية. أنشأها

الملك القاهر اسحق ابن الملك المعادل (وهو شقيق الملك العظيم لأبيه) في حدود

سنة ٦٣١ (١٤).

— المدرسة الغزيرية بجوار المدرسة المظفمية في أقصى غرب الصالحية وقد أنشأها

الملك العزيز عثمان شقيق العظيم سنة ٦٣٥ (١٥).

— المدرسة البيغورية غربى الصالحية (وموضعها اليوم في السكة فيما يسمى بين

المدارس) وقد بناها الأمير جمال الدين يغمور الباروقى نائب دمشق حوال سنة

٦٥٠ - ٦٥٥ وقد توفي سنة ٦٦٣ (١٦).

٤ — البيمارستان القيمرى: الذي اكتمل به الجانب الصحى للبلدة الجديدة

- (٦٠) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤٣ - ١٥٠.  
(٦١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٢٤ - ١٣٠.  
(٦٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١١٣ - ١٣٤.  
(٦٣) المصدر نفسه ج ١ ص ١٤١ - ١٤٢.  
(٦٤) المصدر نفسه ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥.  
(٦٥) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣١ - ١٣٣.  
(٦٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣٨.



والواقع أن الأحوال العامة للصاحلية وقبل أن ينتصف القرن السابع قد أصبحت قطعة من حياة دمشق ومشابهة لها في التكوين والبنى والمطيات والمؤسسات إلا في النشاط الاقتصادي - التجاري وفي البراعات الحرفية فانها ظلت مقصورة بالطبع عن المدينة الأم بحكم اعتراضها في سفع الجبل وانغلاق الاتصال بينها وبين البلاد الأخرى إلا عبر دمشق وعدم وجود الطرق المباشرة إليها والخاصة بها إلا عن طريق دمشق بالاضافة الى ضيق مجالها أمام المجالات الدمشقية الواسعة. ولم يكن بإمكانها أن تتنافس المدينة التي تستأثر بالسلطة السياسية (ففيها نائب السلطنة وحاشيته ودواوين الدولة) وبالقوى العسكرية (ففيها مقر الجند) وبالحركة الاقتصادية الخارجية والداخلية (ففيها التجار الأجانب والفنادق والخانات والأسواق الغنية) وبالنشاط العلمي (التمثل في مدارسها وجوامعها ومساجدها وزواياها والأربعة...) لذلك كان محكوما على الصاحلية أن تبقى بلدة صغيرة محدودة التوسع وأن تبقى في الطابع العام بين المدينة والقرية وأن لا تتجاوز حدود ذلك على أي حال .

ويكشف احصاء المؤسسات العامة فيها في العهد المملوكي (ما بين أواسط القرن السابع حتى نهاية القرن التاسع ومطالع الماشر) أنها تابعت الحياة الرتيبة التي تكونت فيها من قبل، وعلى الوتيرة السابقة نفسها والمؤسسات الأيوبية ذاتها فيما عدا مؤسسات التصوف .

ولو استعرضنا مظهر في الصاحلية من المؤسسات في القرن الثامن، - بما عدا المساجد - لا وجدنا إلا دارا واحدة للحديث (هي دار الحديث القلاسية التي بنيت سنة ٧٢٠) ومدرسة واحدة للأحناف (هي المدرسة الجمالية التي أسست سنة ٧٤٨) وخانقاه واحدة أو اثنتين (هما الخانقاة العزبة في مطالع القرن ولخانقاة القلاسية أيضا سنة ٧٢٠) وزاوية واحدة (هي الزاوية الغسولية حوالي سنة ٧٣٧) أما الترب فقد استمرت في التزايد ونعد منها ١٨ تربة (٧٠). وثمة

(٧٠) انظر القلائد ج ١ ص ٨٥/١٥٥/١٨٩/١٩٦ بالترب ولما ترب فوجدتها في الصفحات ٢١٤/٢١٨/٢٢٠/٢٢٦/٢٢٧/٢٢٩/٢٣٠/٢٣٦/٢٣٧/٢٣٩/٢٤١

وسنة ٦٥٠ تسع وعشرون تربة ملأت الصاحلية قبابا وقبوراً للأمرء والكبراء ومن أصحاب هذه الترب الأيوبية: البجد البهنسي وزير الملك الأشرف توفى (سنة ٦٢٨) وجمال الدين عبد الرحيم بن علي بن الحسين بن شيث الاسناني القوصي صاحب ديوان الانشاء للملك العظيم (سنة ٦٢٥) والأمير سنقر الحلبي الصلاحي من قواد صلاح الدين (توفى سنة ٦٢٠) ومثله الأمير شرقي (جهار كس - سنة ٦٠٨) والأمير داود بن ايد كين الصالحي (توفى سنة ٦٣٠) .

**ومن العلماء:** مهذب الدين الدخوار الطبيب المشهور (ت. سنة ٦٢٨) صاحب مدرسة الطب الدخوارية وعلى بن محمد بن عبد الصمد السخاوي شيخ النحاة والقراء والفقهاء في زمانه (سنة ٦٤٣) وقاضي القضاة عز الدين محمد بن عبد القادر المعروف بابن الصائغ (٦١١) .

#### ٤ - الصاحلية في العصر المملوكي :

حين أطل العصر المملوكي على الشام بعد سنة ٦٥٨ / ١٢٦٠ هجرية المنقول كانت الصاحلية قد استكملت حاجتها من النشاط العمراني والسكاني ومن المؤسسات العامة والأسواق، وقد بدأت فترة ذلك النشاط الواسع تهبطاً وبدأ لفظ البياني لتطورها يأخذ المستوى المرتبى المتماذي بعد أن كان في صعود عفيف خلال السنوات الخمسين أو الستين السابقة. وفي الوقت نفسه كانت الأسرة القدامية قد أطلقت أقصى طاقاتها وجويتها في كبار العلماء الذين أخرجتهم فأجبالها التالية من بعد سوف تحاول الوصول الى القمم السابقة التي وصلها الآباء والأجداد... ونلاحظ شيئا فشيئا تراخي التأثير والتأثير بين الأسرة والبلد الذي أسسته، ولم يعد القداميون أعلام العلم الوحيدين في الصاحلية كما لم تعد الصاحلية بالمقابل وحيدة المذهب الحلبي أو وحيدة النشاط . وانفصل الطرفان فكل منهما سوف يتابع تطوره الخاص ..

(٦١) انظر القلائد ج ١ ص ٢١٤/٢١٧/٢١٩/٢٢٠/٢٢٦/٢٢٧/٢٢٩/٢٣٠/٢٣٦/٢٣٧/٢٣٩/٢٤٠



ولم تقتصر النكبة على النهب وهدم الدور واحراق وأسر الناس وقتلهم ولكنها تناولت التراث العلمي أيضا فقد «نهب كيب كثيرة في الرباط الناصري و (المدرسة) الضيائية وخزانة ابن البرزقو وكانت تباع وهى مكتوب عليها الوقية...».

«وفعلوا بالمرّة مثل ما فعلوا بالصالحية وكذلك بداريا وبغيرها وتخصّن الناس منهم في الجامع بداريا ففتحوه قسرا وقتلوا منهم خلقا وسبوا نساءهم وأولادهم...» ومن من نكيب وقاسى الشدائد العظيمة عز الدين أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي الذي توفي إثر ذلك اول سنة ٧٠٠ (٧٢).

غير ان الصالحية استردت من جديد نشاطها بعد النكبة وزوال الرعب السرى وقد وصفها ابن بطوطه حين زار دمشق (وقد زارها سنة ٧٢٩ وسنة ٧٤٩) بأنها «مدينة عظيمة لها سوق لانظير له وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة أبى عمر موقوفة على من أراد ان يتعلم القرآن الكريم من الشيخ والكهول وتجزى لهم ومن يعلمهم كلّا يتهم من المأكول والمليس . وبداخل البلد (يعنى دمشق) مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا (حنبلية) وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل...» (٧٣).

أما الفريفة الثانية للصالحية فكانت بيد تيمور لىك يوم سحق دمشق سنة ٨٠٣ / ١٤٠١ ولم يكن ماحل بالصالحية مختلفا عما رواه ابن عربشاه وابن تغرى بردى حول نكبة المدن من قتل وذبح ومصادرة أموال ونهب متاع وهلاك أعراض وحرقات فقد نزلت أقسام من جند تيمور بسفح قاسيون حتى قبة سيار وضرب تيمور معسكره هناك (٧٤). و يبدو أن مفاوضة الدمشقيين معه (ومع الوفد ابن

(٧٢) ابن كثير ج ١٤ ص ٨ وابن رجب ٢ ص ٤٦٥.

(٧٣) ابن بطوطه الرحلة (ط). دار صادر بيروت (١٩٦٤) ص ١٠١.

(٧٤) انظر ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة ج ١٢ ص ٢٣٠ - ٢٤٨ وابن عربشاه عجائب القصور

(تحقيق علي محمد عسرط . دار الانصار بالقاهرة سنة ١٩٧٩) ص ١٤٨ - ١٧٧ وقبة سيار

معروفة الموضع. وماتزال بقاياها قائمة في أعلى جبل المهاجرين.

بسمارستان شرقى الصالحية يدعى المارستان الشرقى كان مند ثرا في القرن الثاني ولعل بناءه يعود الى هذا القرن (الثامن) أو القرن السابق (٧١).

وقد أصبحت الصالحية، مع دمشق بضر بين فاسيتين أشد القسوة وبين الواحدة والأخرى قرن من الزمان. وقد حضر الضر به الأولى (ابن تيمية) وحضر الثانية (ابن خلدون)، وكان لكل منهما دوره الواضح في محاولة دفع النكبة عن البلد دون طائل .

كانت الأولى ضريبة قازان سنة ٦٩٩ / ٣٠٠م آخر القرن السابع فقد نزل جيش التتار بدمشق يطوقها وبالرغم من أن المدينة استسلمت (عدا القلعة) وخطب فيها لقازان على منبر الجامع الأموى بحضور التتر (الجمعة ١٤ ربيع الثاني سنة ٦٩٩) إلا أن جيوش التتر وصاحب سيس الرابطة على جبل الصالحية شرعت في اليوم التالى في نهبها... .

وهكذا «نهب مسجد الاسديّة فيها ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرافية واحترق جامع التوبة بالمعيية» (عند سور دمشق) واستمر العدوان يتصاعد اسبوعين... يقول ابن كثير «وكان هذا من جهة الكرج والأرض من النصرارى الذين هم مع التتار» «وسبوا من أهلها (الصالحية) خلقا كثيرا وجا غفيرا. وجاء أكثر الناس الى رباط الحنابلة فاحتاطت به التتار فحماه شيخ الشيخ (محمود بن على الشيباني) وأعطى في الساكن مال له صورة. ثم أقحموا عليه ففسبوا منه خلقا كثيرا من بنات المشايخ وأولادهم فانا لله وانا اليه راجعون...»

«ولما نكيب دير الحنابلة في ثاني جمادى الأولى قتلوا خلقا من الرجال وأسروا من النساء كثيرا ونال قاضي القضاة تقى الدين أذى كثيرا ويقال انهم قتلوا من أهل الصالحية قريبا من أربع مائة وأسروا نحو من أربعة آلاف أسير...»

(٧١) التلاند ج ١ ص ٢٤٤.



التابع لدمشق. فقد أدت مضايقات الدولة المشرقية ونطو يقها في تلك الفترة لبعثايا الامبراطورية البيزنطية حول القسطنطينية الى اضطراب طرق التجارة العالمية المستقرة منذ قرون بين الشرق والغرب. ثم احتل المشرقيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فانهمروا الكالات التجارية وقبضوا على الجاليات الأجنبية المحتكرة للتجارة فرحل التجار والطرق معهم الى الشام ومصر بالأعداد الضخمة مع مصارفهم ولحانات والمخازن والفنادق في الوقت الذي نظمت فيه السلطة الملوكية عملياتها التجارية وضبطت عيار النقود. واستقبلت بالترحاب وفود المدن التجارة الإيطالية ونشاطات شركة جاك كور الفرنسية (٧٨) بين دمشق والاسكندرية وفرنسا والتجارة القطالونيين. ولكن هذا النشاط كله في نهاية القرن بسوء سياسة المماليك واحتكراهم كل شيء من جهة وباحتشاق امريكا وطريق الهند من جهة أخرى .. وانتهت البلاد الى الزلزلة وإلى الحكم المشرقي.

وقد أفادت دمشق من ذلك النشاط التجاري في القرن التاسع لأنها كانت البلد الثاني في المنطقة بعد القاهرة وفيها نياية السلطنة وكانت أسواقها مستوعبة للتجارة بين وسط آسيا وأوربا. وقولها في مواسم التجارة تفصل الى حوالي ١٥ ألف رجل وفيها الوكالات والفنادق والقناصل... (٧٩).

وقد ظهر تأثير ذلك كله في الصالحية حين عادت الى الظهور عدد من المنشآت التي اختفت في القرن السابق ومنها :

(١) داران من دور القرآن : ولأول مرة تعرف الصالحية هذه الدور التي كانت

(٧٨) كانت هذه الشركة تحكم تجارة فرنسا وأوربا مع السلطة الملوكية في تلك الفترة وما ٣٠٠ فرع في شرقي المتوسط وغربه مع أسطول ضخم وبلغ من ثرائها أنها كانت تقترض الملوك والدول الأموال الطائلة. وقد هرب صاحبها من غصب الملك سنة ١٤٥٠ ثم مات سنة ١٤٥٦ ولكن نشاطات الشركة استمرت بعده.

(٧٩) انظر Heyd : histoire du commerce du levant : Leipzig, 1925 T. I. P. 458

T. I. P. 458 Depping G. B. his. du commerce entre le levant et l'Europe, Paris 1830.

خلدون) كانت تنتم في هذا المعسكر على الجبل بينما كان جنوده يطوقون الشام وراء غوطتها من قفلا واديا الى الحولة الى سفح الصالحية التي فر الكثير من أهلها لاجئين الى أسوار دمشق... و يبدو أن داود تيمور أمين الرساقل عنده نزل في المارستان القيمري وأعجب به وبرحابه وبنزهته (٧٥). بينما كان جنود تيمور يتوغلون في قري الغوطة وفي الصالحية نفسها، و بنهون مايشاؤون .

وحين وزع تيمور أحياء دمشق ومناطقها غنائم لجنده كانت الصالحية بين الغنائم وأصاب مدارسها ومساجدها وكتبها والزوايا والرجال والنساء ما أصاب دمشق. وقتل بين من قتل من العلماء المحدث عمر بن محمد عبد المادي واخته المحدث فاطمة. وكانت النكية عامة. يقول ابن قاضي شهاب «ومن عجيب ماوقع ان المدرسة الميمنية بين الصالحية والقابون سلمت الى بعد الواقعة... فهدمت (بعد ذلك) وأخذت آلتها» (٧٦) وقد عادت الصالحية تنهض مرة أخرى بعد النكية التيمورية بل عرفت بعض الأذهار أيضا فقد وصفها القلقشندي في كتابه صريح الأعشى الذي أتمه سنة ٨١٤ بقوله: «مدينة الصالحية مدينة ممتدة في سفح الجبل تشرف على دمشق وضواحيها ذات بيوت ومدارس وربط وأسواق وبيوت جبيلة. ولكل من دمشق والصالحية البسائين الأنيقة يتسلسل جداولها وتغني دوحاتها والجواسق المحلية والبرك العميقة والبحيرات الممتدة والجوار المشوق والرياحين المتأرجحة الطيب والفاخرة الجنية والشرارات الشهية والأشياء البديعة التي تغني شهرتها عن الوصف ويقوم الايجاز فيها مقام الاطباب...» (٧٧).

ويبدو أن الازدهار العام الذي شمل السلطنة الملوكية في القرن التاسع، وأفادت منه دمشق والقاهرة قد لاس بدوره الصالحية وهي الكوكب

(٧٥) القلائد ج ١ ص ٢٤٤.

(٧٦) المصدر نفسه ص ١٤٢ نقلا عن ابن قاضي شهاب.

(٧٧) القلقشندي - صريح الأعشى ج ٤ ص ٩٤.



٦) الروايات وقد بنى منها ٢٥ زاوية في الصالحية وإنما كثرت نتيجة انتشار المد الصومى بين الناس في تلك الأيام وتكاثر الفرق الصوفية وتنوعها وسيطرة العقلية الغيبية على الفكر. وقد كان في الشام ما يزيد على سبعين طريقة للمستصوفة (منها الرفاعية والقادرية (الجيلانية) والتشيعدية والكلمندرية والوفائية والبيزنسية..). ولها مشايخها وأذكارها والمريدون والأوقاف والطقوس ولهذا أقيمت في الصالحية ١٣ زاوية في القرن التاسع وخمس في العاشر.

وكانت أعظم هذه الروايات كما يقول ابن عبد الهادي هي الزاوية الداودية التي أنشأها الشيخ أبو بكر بن داود الصومى (الجيلانى) الصالحى الحنبلى في حدود سنة ٨٠٠ ولم يتممها فأتمها ابنه من بعده «وجعلها من المعجائب» فقد وسعها وجعل لها الأوقاف ومنها حلال من الثلج لتبريد الماء.. وكان لها مدار للماء وصهر بروج وأبواب ومسجد وخلاوى كثيرة للفقراء ومعارة وميضأة وبيت للكتب الموقوفة ومساكن للنساء. ولها امام ومؤذن وتقيم واعظ وتوزع فيها ألوان الأطعمة ويقام بها الذكر كل ليلة ثلاثاء ويقصدها الناس من كل جهة (٨٦). فهي أغنى زوايا الصالحية التسع والعشرين.

٧) أربع ترب : لبعض الأمراء والتجار. ومنها تربة الأمير سودون (سنة ٨٤٨) والتربة الشهائية (سنة ٨٢٩) والخواجكية (سنة ٨٢٦). (٨٧).

ان هذه اللوحة للأصمحة العمرانية في الصالحية خلال القرن التاسع تكشف ان الاتجاه الفكري العام لم يكن باتجاه العلوم الدينية من قرآن وفقه وحديث ولكن باتجاه الفكر الصوفى الغيبى الذى غلب على كل اتجاه آخر والذي سيظل سائدا في العصر العثمانى التالى.

وعلى أى حال ففى مطالع القرن العاشر حين كان مصير الشام يتجه

(٨٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٥.  
(٨٧) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٢٣/٢٢٢/٢٢٤ بالتقريب.

دمشق قد عرفها منذ القرن الخامس (دار القرآن الرشائية التي أقامها رشا ابن نظيف المتوفى سنة ٤٤٤) والتي انتشرت فيها في القرن الثامن خاصة. وهكذا ظهرت دار القرآن الاسمرية سنة ٨١٧ ثم دار القرآن الدلامية سنة ٨٤٧ (٨٠) والداران من ببناء بعض كبار التجار وماتزال الدلامية موجودة اليوم مع الجامع المتصل بها وكاننا في موضعين متقاربين من الجسر الأبيض وأول مظلة حمام المقدم).

٢) دار الحديث النظامية: شرقي الصالحية وقد أنشأها قاضي القضاة عمر بن إبراهيم بن مفلح الراميني المقدسي الحنبلى حوالى سنة ٨٥٠ أو قبل ذلك (٨١).

٣) جامع الخاجبية : وقد أقيم جنوب مدرسة أبى عمرو بناء الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك الاينالى سنة ٨٧٢ من الجبر (٨٢) وأقام بالقرب منه حماما. (وقد دثر الجامع بزال أسقط مثمنته عليه سنة ١١٧٣ هـ ثم نقض الناس حجارته وأما الحمام فما يزال قائما).

٤) المدرسة الآمدية : للأخفاف : كانت في شرقي الصالحية أنشئت قبل سنة ٨٢١ ولعل ذلك في القرن الثامن وبها تربة لصاحبها (٨٣).

٥) خانقاه وان اثنيان هما :

— الخانقاه الباسطية بالجسر الأبيض وقد أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش (الملوكية) والخوانق والكسوة الشريفة (٨٤) أيام الأشرف برسباى سنة ٨٣٦.  
— خانقاه جامع الخاجب الأمير محمد بن مبارك (٨٥).

(٨٠) القلائد الجهرية - ج ١ ص ٧١ - ٧٣ و ص ٧٣ - ٧٥.  
(٨١) القلائد ج ١ ص ٨٧ - ٨٩.  
(٨٢) القلائد ج ١ ص ٥٢.  
(٨٣) المصدر نفسه ص ١٢٤.  
(٨٤) المصدر نفسه ص ١٨٤ - ١٨٦.  
(٨٥) المصدر نفسه ص ١٩١ و ٥٤.



٤١ بشرا (٨٨) الى نهر يزيد المار على امتداد الصالحة ونهر ثورا المار كذلك دونه بقليل.

وكان سكان الصالحة أخطا من مختلف بلاد الشام والعراق والجزيرة وبخاصة من فلسطين معهم جماعات من الجند البطالين الاكراد والأتراك والخرزومية وهكذا نرى فيها حارات البواعة (من باعونة) في فلسطين او باعون من قرى عجلون والجرارة (من الجرارة قرب نابلس) والرادوية من (مردا) والبالقة (من بلقين) والنيامة من وادي التيم وحارة التغالبة والخرزومية. كما نسمح من انساب العلماء بالأسعدي والبالسي والسنجاري والتكريني والحليلي والراميني (٨٩). وليس ثمة احصاء في المصادر يقدر عدد سكان الصالحة وقد لانكون مجازفين اذا قدرناهم خلال عصر المماليك ما بين ٢٠ الى ٢٥ ألفا في اقل تقدير استنادا الى عدد الجوامع والحمامات (١٠) وآبار الماء لأن المؤسسات الأخرى لا تكشف العدد السكاني.

(٨٨) استقينا هذه الاحصائيات من مجموع ما ورد في القلائد الجهرية عن مفرداتها وهي باعتراف المؤلف محدودة، بقدر علمه لا تقدر الواقع الذي يزيد عليها. وقد عدنا ما يتلخص منها بالمساجد والحمامات على ضوء ما ورد لدى ابن عبد الهادي في ثمار القاصد (من ص ١٤٥ الى ١٥٩) حيث ذكر حارات الصالحة تفصيلاً مع مساجدها، وما جاء في رسالته عن الحمامات (جملة المشرق سنة ٩٤٩ من ص ٤٠٩ الى ص ٤١٩) كما أضفنا الى ذلك ما ورد في المرجع السندي حول الحمامات والأسواق والخانات والقصور ما نقله ابن كنان عن ابن طولون وابن عبد الهادي وفقده في النسخة المخطوطة الوحيدة التي نشر عنها كتاب القلائد. انظر في المرجع الصفحات ٣٠-٣١.

(٨٩) انظر مثلاً القلائد ج ١ ص ٢٤٩ وص ٢٥٣ وج ٢ ص ٤٥١ وثمار القاصد: ص ١٥٤ و١٥٨ و١٤٩ اعتباراً للسجد الواحد بين كبير وصغير يتجم ٥٠ مصباً وإذا كان مجموع المساجد والجوامع هو ١٤٩ فالصالحون هم حوالي سبعة آلاف شخص يتل كل منهم أسرة من ثلاثة أفراد أو أربعة (زوجة ولدين) فالجميع ٢٢ ألفاً الى ٣٠ ألفاً. واعتبرنا ان الحمام يتجم يومياً ما بين ٣٠ - ٤٠ شخصاً في المتوسط (١٠ الى ١٥ أسرة من ٣ الى ٤ أفراد) فالجميع اليومي في حمامات الصالحة هو بين ٨٠٠ الى ١٠٠٠ شخص فإذا كانت دورة الاستحمام مرة في الشهر فإن هذا يعني ان عدد السكان هو بين ٢٤ الى ٣٠ ألفاً تقريباً.

للموقع في أيدي العثمانيين سنة ٩٢٢/١٥١٦ بعد ثلاثة قرون ونصف القرن من انشاء الصالحة وتطورها كان هذا البلد يحوى في تخطيطه العام سوقاً رئيسية تمتد من الغرب الى الشرق، بجوار نهر يزيد، بعيداً قليلاً عنه. ومركزها في الوسط حيث يقوم على الجانبين من شمال السوق جامع الخناينة ومن الجنوب المدرسة العمرية وتنتزع منها صعداً في سفح الجبل وزولا نحو النهر أزة ضيقة تقسم الى ٣٨ حارة بعضها واسع كيف السكان مثل حارة الخياك (غربي جامع الخناينة وبها ١٧ مسجداً) وحارة الجامع نفسه (٦ مساجد) وحارة المدرسة العمرية (٦ مساجد) وهما في وسط الصالحة ومركز الحركة فيها، وثمة حارات الشبلية (٩ مساجد) والخراب (١٠ مساجد) والركنية (٧ مساجد) ورأس المليحة الصاحبة (١١ مسجداً) وهي في شرق الصالحة حيث يسكن الأكراد الأيوبون. ويجد في جنوبى الصالحة حارتى الجسر الأبيض والدلامية (١٥ مسجداً) وفي غربها حارات سوق شعيب والسكة (١٠ مساجد) والفراخير (٧ مساجد) والبالقة (٦ مساجد). وتخطيط هذه الحارات كان عشوائياً وقد خفض لتضاريس السفح المنحدر ولأهواء التراكم السكاني (وما يزال ذلك واضحاً في مخطط الصالحة الى اليوم) وجميع الدروب، بما في ذلك السوق الرئيسية غير مبطة وتكتسحها في الشتاء السيول الماطلة على السفح ولا يزيد البناء على طابقين سفلى، وعلى لأن معظم بيوتها طينية (من اللبن والخشب). وتقوم معظم الأبنية الهامة والحجرية على امتداد السوق الرئيسية أو بقربها. وتشمل هذه الأبنية دارين من دور القرآن وستة من دور الحديث وخمس جوامع ومائة واربعة وأربعين مسجداً وست عشرة مدرسة (عدا المدارس في الزوايا والخوانق والمساجد) منها اثنتا عشرة للأحناف واثنان للشافعية ومثلهما للحنابلة وكان في الصالحة خمس خوانق ومارستانان (أحدهما مندش) و٢٩ زاوية و٦٤ تربة وسبعة وعشرين حماماً (عدا حمامات البيوت المعروفة) و١٦ رباطاً للنساء والأرامل والأيتام عدا ما كان فيها من الخانات (١٣ خاناً) والأسواق (١١ سوقاً) والقصور (١٢ قصراً) والماصر والبساتين والطواحين والأسطبلات. وتعملو البلد غابة من الآلات والقباب تظهر فيها ٢٤ مثانة وعشر قباب كبرى عدا قباب التريب بينما حفر في أرضها الكثير جداً من الآبار وقد أحصى ابن طولون ما يعرف منها فكانت



ونستطيع أن نذكر من الحرفيين وأهل الحذامات والأسواق : صانعي الورق «فالبورق للصاحلية - كما يقول ابن طولون - ولا يصنع إلا بها. ومنها يجلب إلى سائر الدنيا...» ولعل لاتساع العمل العلمي في الصاحلية أثره في نقل هذه الصناعة من دمشق إليها. وهناك في أقصى غرب الصاحلية على الجبل حارة الفواخير (أى صنع أدوات الفخار وكانت في مكانها نفسه حتى عهد قريب)، وفي الأسواق سوق للقطّاعين وسوق للفاكهة وبعض الماصر والحانات ومنها خان السبيل، وأما الكارون فكان موقعهم في شرق الصاحلية على رأس الطريق المؤدية إلى حي العقبة وباب الفراديس في دمشق. (١٢).

ويجب أن نضيف أخيراً إلى هذا وجود طبقة واسعة في الصاحلية من الزهاد والصوفية والمعكفين في الزوايا والأربطة يعيشون على هامش العملية الانتاجية وعملهم الأساسي هو العبادة وبتبهم أعداد واسعة من الفقراء والتهدين والمطلين الذين يعيشون على فئات الموارد الوفيرة.

ويبدو واضحاً بعد هذا كله ان هذا البلد الجديد قام وظل يقوم في ثروته العامة لأعلى انتاجه المحلي (فهو - باستثناء الورق - انتاج محدود ببعض الخضار والفواكه واللوز والتليل من الجيوب ولا يقوم أبداً بحاجات الجماعة السائكة)، ولكن على ما كان يرد الصاحلية ويتدفق فيها من أموال الهبات والهدايا والنفقات للبناء من ريع الأوقاف الكثيرة الموقوفة على مؤسساتها الدينية والعلمية والصوفية فالبلد كان منذ تأسيسه الأول على يد آل قدامة، وظل بعد ذلك معهم ومع من انضاف اليهم فيه، ذا اقتصاد طفيل مستعار وهو يتفرد بهذا دون الضواحي والأرباض الأخرى المسائلة له حول دمشق كالكزة وداريا فقد كانت هذه القرى الواسعة أراضيها الزراعية التي تقوم باقتصادها ولم يكن فيها من المؤسسات

(١٢) انظر في ذلك كله بالترتيب، القلائد ١ ص ٣٧٦ ثم ابن عبد الهادي - ثمار القاصد ص ١٥٧ و ١٥٨ و ١٤٥ ورسالة الحسامات (في المشرق) ص ٤١٦ ثم ثمار القاصد ص ١٥٦ و ص ١٥٧ وأخيراً النعماني - الدارس ٢/ ٢٤٥. وانظر في الصناعات دمشق رسالة (الطبعة) لابن عبد الهادي المنشورة في المشرق المجلد ص ٣٨٤ - ٣٩٠.

والطبقات البارزة في المجتمع الصالحاني كانت طبقة العلماء والصوفية والعقهاء والعاملين في المجال الديني وفي تدريس العلم وطلبه لأنهم يتلون الاتجاه العام في اهتمامات البلد. والأسماء التي حفظتها كتب التراجم من كبار أهل الصاحلية في العصر المملوكي تضم فيما احصيناه حوالى الثلاثين من المحدثين والمحدثات وقرابة الستين من السنن والخطاط وثلاثين آخرين من العلماء والفقهاء وحوالى العشرين من الزهاد ولا تقل هذه الأرقام سوى الذين فرضتهم سمعتهم على مؤلفي الطبقات والتراجم وقد سكن الصاحلية أيضاً عدد من أفراد الدولة (١١) كما سكنها عدد من كبار القضاة وبعض التجار (الخواجهكية) وبعض الملاكين (كبنى القلائد) كانوا يتقسمون فيما بينهم إلى مجموعة من الأسر البارزة المتخصصة فشمة أسر الشيخ القداميين وغيرهم وأسرة العلماء والقضاة وأسرة التجار وكلها متميزة معروفة.

على ان هذا لايعنى عدم وجود طبقات واسعة من العامة تكمل هذه الطبقات المميزة وتشكل أعضائها في العدد وتقوم بالانشغالات الاقتصادية الحيوية للبلد. وإذا كانت عزلة الصاحلية قد منعت من وجود طبقة تجارية هامة فيها فقد كان اقتصادها يقوم على الطبقات العامة والحرفية كالعاملين في الطعام (الأفران) والطحواحين، والمخابز، والجزارة وبعضهم كالمزودة كانوا يذبحون الجواميس و باعة الخضار والفواكه وهي كثيرة في الصاحلية لا تقصاها المباشريين و باعة الجيوب وأصحاب المهن والحرف (البناء، النجارة، البيطرة، السروج، الخياكة والقمعاش وهي «مائة صنف») الورق. الحداذة. الدباغة. الصباغة. الطبابة. بالإضافة إلى الجرائحين والشماعين والجيارين والبارزين... والعامل في الحذامات العامة (حمولة، سقاية، دلالة، قبان، سمسرة...) لكن الطبقات الأخرى علماً أو سلطة أو مالا كانت تحجب هذه الطبقات وإن كانت تقيم حياتها العامة على نشاطاتها.

(١١) انظر مثلاً القلائد ج ١ الصفحات ٢٦٩ - ٢٧١ وانظر في تفصيل أسر الصاحلية وأسماؤها المروج ص ٦١ - ٦٤.



الدراسة الدينية والتدريس عند الأجيال التالية من رجال الأسرة وأقر بانها مهنة من المهن للعيش المحترم وتحولوا الى الشهرة بالوظائف الدينية الكبرى وتول القضاة والشيخات ونظارة الأوقاف والخطابة والتدريس بالمدارس وحمل الألقاب الضخمة وضمنت نشاطاتهم في التأليف وتظلوا بكرامات أجدادهم السابقين حتى صار كل هم فروع الأسرة تخريج الشيخ الموفين قرابة قرنين.. اذا تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وجدنا في تاريخ الأسرة المقدسية عددا من الملامح المميزة:

(١) لم تكن هجرة الشيخ أحمد الاول مع أهله هي التي كونت جبهة المقادسة في الصالحية. ولا كانت الهجرة الوحيدة. والواقع ان الهجرة من منطقة الجماعليات الى صالحية دمشق استمرت بأعداد قليلة ولكنها مستمرة خلال كل تلك الفترة التي نمت فيها مكانة الأسرة ونمت معها الصالحية ما بين القرنين السادس والسابع. كان ثمة دون انقطاع خط متصل دائم من المهاجرين يتحرك ما بين نابلس ودمشق وبالعكس. وكان بعض هؤلاء يأتي لطلب العلم والعودة وهم الأقارب. أما الكثير منهم فكان يأتي للاستقرار أو كان يجذب الى الجو الصالحي الفهم بالعلم والجوية والاحترام وامكان المعيشة الحسنة وكان بالنتيجة يستقر ويستدعى بالتدريج أهله وبنين لهم البيت والحارة والمسجد الخاص. ولم يؤثر تحرير فلسطين وبيت المقدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ على هذه الهجرة، لاني دفع المهاجرين السابقين الى العودة لراضيهم ولا في إيقاف حركة اللاجئين. ولعل السبب هو أن المجموعة المقدسية وجدت في مستقرها الجديد جوا من المعيشة أفضل، في الوقت الذي وجدت فيه حياتها هدفاً أجلاً وأسمى. لم تعد حرائة الأرض تغريهم مادامت حرائة الكتب بالعيون خير عند ربك جزاء وأفضل مقبلاً دنيا وديناً. كما كان مابله السابقون من المكانة في الجاه والبسطة في العيش اكبر اغراء يسادي اللاجئين. ولم يكن القادمون ليرفضوا هذا ان لم يكونوا بالمكسب يشجعونه لأنه قوة لهم وبرهان على نجاح رسالتهم الدينية. وهكذا انتقل وظل ينتقل بالتدريج مجتمع قروي كامل من تلك البقاع الفلسطينية (الجماعيات) الى سفح قاسيون بدمشق ويتحول على ذلك السفح من العمل الزراعي الى النشاط

والنشاطات والتكاثر الديموغرافي ما تحتاج معه إلى التمويل الخارجي.

وقد دخلت الصالحية، مبكرة، على ما يظهر في النظام السياسي العام للدولة وبلغ من شأنها أن كان حاكمها، في أواخر العهد المملوكي يحمل رتبة «داوآور السلطان» وهي إحدى الرتب الكبرى السبع في السلطنة. وكان للصالحية كذلك وال ولها محتسب ولدينا بعض أسماء هؤلاء وأولئك من المتأخرين. وكان في الصالحية «محكمة فيها نحو ثلاثين قاضياً من المذهب الاربعة» كما كان ثمة جهاز للحراسة الليلية في محلات البلدة «وكان لكل محلة من هذه المحلات رئيس يحرسها (مع) العسس يسهرون الليل.. خوفاً من مؤذ أو عدو». (١٢)

## ٥) آل قدامة والصالحية المملوكية:

تواريخ الأسر، سواء كانت هذه الأسر سياسية أم تجارية أم علمية تتشابه في ظاهرها واحدة هي ذلك الخط البياني الذي يتصاعد مع الجبل المؤسس نشاطاً وجهداً وتكينا وتكوين رصيد معنوي أو مادي أو كليهما ثم يعتدل الخط ويستقر ويشي في اتجاه ألقى متماثل فترة تطول أو تقصر ثم يبدأ الخط بالهبوط التدريجي أو السريع وتعيش الأسرة على أجدادها السابقة قبل ان تنطفئ شمعها الأخيرة. وأسرة آل قدامة دخلت عصر المسالك وهي أسرة كبرى من أسر العلم. كان وراءها مائة سنة من الجهد وسهر الليل والالام والاعمال والصعود لذلك كان مهمها في المرحلة التالية المحافظة على الثروة التي وصلتها وعلى المواقع التي كسبتها..

وإذا نحن تجاوزنا هذه الملاحظة الأساسية وهي أن آل قدامة الأوائل الذين ظهوروا في ما بين القرنين السادس والسابع كانوا أكثر شهرة بسعة العلم وبكثرة المؤلفات وبعمق التدوين والرهف حتى نسبت اليهم الكرامات بينما صارت

(١٢) انظر القلائد ج ١ ص ٢٧٢ و ص ٢٧١ و ص ٢٦٨ وانظر أيضاً الروح ص ٣٥



وبينما هاجر عبدالواحد بن علي بن سرور، صهر آل قدامة معهم الى دمشق بقي ابن عمه نعمة بن سلطان في بلده وأطلعت أسرة ابنه عبدالمعمر بن نعمة مجموعة علماء وقضاة نابلس في القرنين السادس والسابع ومن هؤلاء جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن عبدالمعمر (ولد وتوفي في نابلس ٥٩٤ - ٦٥٦) (١٤) وأخوه من قبله يوسف تقي الدين (٥٨٦ - ٦٣٨) وشمس الدين عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبيدالمنعم إمام نابلس سبعين سنة (توفي سنة ٧٣٧) وأحمد بن عبدالرحمن بن عبيدالمنعم (الذي توفي بدمشق سنة ٦٩٧) مفسر الأحلام والرؤيا. وباراهيم بن عبدالرحمن المفتي نابلس (توفي سنة ٧٣٧) وغيرهم كثير.

٤ - لم تقتصر الهجرة على الأسرة القدامية وأقربائها وأهل القرى في منطقة نابلس وغيرها ولكنها اجتذبت أيضا العديد من أهل المدن الفلسطينية المختلفة من نابلس والقدس خاصة (من أمثال عبدالدايم النابلسي المتوفى سنة ٦٦٦ واسماعيل بن ظفر المنذرى المتوفى سنة ٦٣٩ وعبدالرحمن بن احمد بن مفلح المقدسي المتوفى سنة ٦٨٩) ومن عسقلان وصفد والخليل والرامه وغيرها وقد تكثرنا بوضوح في الصالحية خلال القرن السابع وظهر منهم العلماء والمحدثون البارزون .

كما اجتذب آل قدامة أيضا بحر كتهم العلمية النشطة وسمعتهم الدينية علماء الخنابلة وطلاب المذهب من بغداد خاصة ومن حران واربل وبالس وأخلاط وغيرها فجاءوها وشاركوا في نشاطات المركز الخليلي الصالحى وفي سمعته العلمية. ولعل من أبرز هؤلاء ابن تيمية (أحمد عبدالرحيم ٦٦١ - ٧٢٨) المجتهد المشهور والحسين ابن المبارك الربيعي البغدادى المسند (المتوفى سنة ٦٣١) وباراهيم بن علي الواسطي مسند الوقت (المتوفى سنة ٦٩٢) واسماعيل بن محمد الفراء (سنة ٧٢٩) وبدر الدين محمد البطائحي (سنة ٧٢٦) وابن رجب أحمد البغدادى الامام (١٤) أنظر ترجمة لدى شذرات ٧٧٨/هـ والذهبي - تذكرة الحفاظ (ط . حيدرآباد) ج ٤ ص ٢٣٣ وانظر ترجمة أخيه لدى ابن رجب ٢/٢٢٧.

الملمى .

٢ ) نتيجة لهذه الملاحظة السابقة نجد أن آل قدامة لم يكونوا وحدهم في ذلك الجهد العلمى الطويل الذي تحقق في الصالحية خلال عدة مئات من السنين. ولكن مجموعة من الأسر الخليلية القريبة لهم في جاعيل وماحولها قد شاركت في ذلك الجهد وبرز منها، كما برز من آل قدامة، وبتأثيرهم وتحت رايته، عدد من العلماء يرتبطون مع الأسرة القدامية — الأم بالرباط العائلية المتفاوتة وقد حملوا مثلهم لقب القادسة وتكون من هؤلاء وأولئك وعن التحق بهم أيضا من بيت المقدس نفسها جماعة علمية قوية واسعة النشاط سواء في عدد رجالها البارزين أو في كثرة وتنوع أعمالها العلمية والدينية والحكومية وأبرز تلك الأسر خمس أو ست: ثلاث منها لصيقة بآل قدامة :

الأول : آل عبيدالمادى وجددهم يوسف بن محمد بن قدامة هو شقيق الشيخ أحمد المهاجر الأول لدمشق .

الثانية : بنو سرور بن رافع الجماعلى و يرتبطون مع آل قدامة برابطة المصاهرة. الثالثة : بنو عبدالواحد بن أحمد السعدى وهم بدورهم أصهار في آل قدامة .

وهناك ثلاث أسر أخرى ترتبط مع آل قدامة برابط عائلية محدودة ولكنها كانت جزءا من الكوكبة المقدسية في الصالحية هي: أسرة المرادوى وأسرة راجح وأخيرا الأسرة التي برزت في القرن الثامن: بنو مفلح الرامني.

٣ ) لم يقف تأثير آل قدامة على موقعهم في الصالحية ولكنه انعكس أيضا على مواطنهم الأصلية في نوع من رد الفعل العائد. وإذا كانت جاعيل قرية صغيرة فقد تبادل آل قدامة التأثير والتأثير مع عاصمة المنطقة الفلسطينية نفسها: نابلس. وظهر للأسرة القدامية فرع نابلس، مشى على خط آل قدامة العلمى في الصالحية وتعاون معهم التعاون المستمر. وأطلع كما أطلعوا مجموعة من العلماء والشيخ والقضاة أقامت المركز العلمى الخليلي - القدامى في نابلس .

وهذا الفرع النابلسي كان من آل سرور بن رافع بن حسن الجماعلى



القرىء المحدث (توفى سنة ٧٧٤هـ) (١٩٥).

واجتذب آل قدامة الى هذا وذاك كبار علماء المذاهب الأخرى وبخاصة الشافعية وقد أتى الصاحبة العديد منهم: من أمثال الحافظ العراقي (عبد الرحيم بن الحسين التوفى سنة ٨٠٦هـ) والذهبي (محمد بن احمد) المتوفى سنة ٧٤٨هـ المورخ المشهور وابن الزكي (يوسف بن عبدالرحمن التوفى سنة ٧٤٢هـ) حافظ الوقت وابن فهد المكي (عمر بن محمد المتوفى سنة ٨٥٥هـ) وابن حجر المستقلاني (احمد بن علي المتوفى سنة ٨٥٢هـ) خاتمة الحفاظ الكبار وابن الجزري والستري كما توافد اليهم جمع من الزهاد وأهل التصوف. وإذا كان أبرز المتصوفة الوافدين هو محي الدين بن عربي الصوفي المشهور (المتوفى سنة ٦٣٦هـ) وعلى قبره هناك جامع معروف باسمه فان مشايخ الطرق الصوفية الشيعية لم يكونوا أقل شأنا وخطرا ومنهم البيهقي (عبدالله بن عثمان المتوفى سنة ٦١٧هـ) وكانوا يسمونه أسد الشام لقوته وزهده. وأبو بكر بن فتيان المعروف بعروك (توفى سنة ٦٧٢هـ) وابن قوام (أبو بكر بن قوام بن علي الباسي المتوفى سنة ٦٥٨هـ) وغيرهم ممن زخرت بزواياهم أزقة الحى وحاراته الى اليوم (١٩٦).

٥) اهتم آل قدامة ومن عمل معهم في مركز الصاحبة العلمي بدراسة ونشر المذهب الجنبلى. الا ان عملهم هذا المذهب عدة قرون كان يستند دوماً، وحسب السنة التعليمية المتبعة يومذاك، الى قاعدة واسعة من دراسة العلوم الدينية واللغوية المختلفة وقد عملوا عليها جميعاً وبرزوا في الكثير منها. واستعراض الاهتمامات التي شغلتهم تبين أنها كانت كلها ضمن هذا الإطار. فقد عملوا في تلقين القرآن الكريم وفي القراءات والتفسير كما اهتموا جميعاً كل الاهتمام بالحديث النبوى وحفظه متناً وسنناً وبدراسة صحيحه وضعيفه وغيره ومشكله ومعانيه وكان من

(١٩٥) أنظر في ترجمة المبارك: شذرات ١٤٤/٥ والراسطى - الدارس ٨٢/٢، وللزم: شذرات ٨٩/٦ وابن رجب: شذرات ٣٢٠/٦.

(١٩٦) أنظر في ترجمة البيهقي شذرات ٧٣/٥ - ٧٤ وترجمة عروك: الثلاث ٢/٥٠٥ و٤٠٧ ولابن قوام: شذرات ٣٩٥/٥.

همومهم معروفة رجال الحديث في اسمائهم والكنى والأعمار والنسب وفي الجرح والتعديل. وكان من لوازم هذا كله دراسة اللغة والنحو والشعر والأنساب فعملوا على ذلك. واستنادا الى هذه العلوم ونتيجة لها جاء بروزهم في الفقه والأصول والفروع والخلاف والمناظرة فمنهم أعداد كبيرة من القضاة... واستتبع هذا أن بعضهم برز أيضاً في قضايا الارث فكان منهم اكثر من فرضى باربع ومن حاسب وعارف بالجبر والمقابلة. وبعضهم كذلك نظم الشعر وعمل في التعبير وتفسير الاحلام وبعضهم (مثل الموفق) برع في الحساب والنجوم والمنازل.

٦) وجميع هؤلاء المقادسة عملوا في التدريس، في مدارسهم ومساجدهم بالصاحبة وفي غيرها من مدارس وجوامع الأمصار بدمشق والقاهرة والاسكندرية وفي بغداد ونيسابور واربل والموصل والحرمين وبالس وبعلبك وتدمر والرجبة والحديثة وازرع ودوما وبعضهم ظل يدرس نصف قرن (كأبي عمر) وبعضهم ظل يتحدث سنتين سنة (مثل شمس الدين عبدالرحمن بن محمد بن قدامة) ومثل فخر الدين على بن أحمد السمدى (١٩٧) كما عمل الكثير في القضاء والفقوى وبخاصة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة. وبعضهم ظل يفتى نيفاً وخسين سنة (مثل تقي الدين سليمان القداسى) (١٩٨).

٧) ومعظم هؤلاء المقادسة عملوا في التأليف. وقد توجهت مؤلفاتهم بخاصة الى الحديث النبوى في الدرجة الأولى والى مايتصل به ثم الى الفقه الجنبلى فكتبتهم فيه هي اليوم من كتب المذهب الأساسية والى كتب الفضائل والناقب، فضائل المدن والأشخاص والأعمال، ومناقب الصحابة وكرامات الزهاد والأولياء. وأخيراً الى المواضيع الدينية في الاعتقاد والتفسير والزهد وفي الانساب وفي المسائل الشرعية التفصيلية. وفيهم عدد من الشيوخ وصلت مؤلفاتهم الى خسين وستين كتاباً (مثل عبدالغنى المقدسى وشمس الدين محمد بن أحمد بن

(١٩٧) ابن رجب - ذيل طبقات ٣٠٥/٢ و٣٢٥/٢.

(١٩٨) المصدر السابق ٣١٥/٢.



بلغ أيضا ألف شيخ مثل عبدالله بن أحمد المقدسي (١٠١٢).

١٠) وكما كانوا يسافرون ويحرضون أبناءهم وتلاميذهم على الرحلة العلمية في الآفاق كانت الرحلة اليهم بالمقابل لأخذ العلم عنهم ودراسة مذهب ابن حنبل عليهم ناشطة واسعة ولا سيما في القرنين السابع والثامن للهجرة. وكان طلب العلم في الصاحلية يعني بصورة أساسية طلبه عليهم وأخذ المذهب الجنبلي عنهم فقد كان للمذاهب الأخرى (الخلفية والشافعية) أعلامها الكبار في مختلف أمصار الاسلام وبخاصة في دمشق والقاهرة مما يعني عن الرحلة لدراساتها في الصاحلية وقد بلغ بعضهم من العمر الطويل ما صار معه «مسند عصره» و«رحلة الدنيا» مثل عائشة بنت شمس الدين محمد (من آل عبد الهادي (١٠٤٤)) ومثل «فخر الدين على السعدي الذي هرع اليه طالبو الحديث من أنحاء الدنيا يطلبون علو الاسناد لأنه «كان آخر من كان في الدنيا بينه وبين النبي (ص) ثمانية رجال ثقات» (١٠٥) يعني في السماع المتصل ومثل صلاح الدين محمد بن أحمد حفيد أبي عمر الذي صار «مسند الدنيا ورحلة عصره» وآخر من كان بينه وبين النبي (ص) تسعة رجال ثقات» قبل أن يتوفى سنة ٧٨٠/١٠١٦ ومن هذه الجماعة كذلك شهاب الدين المقدسي المتوفى سنة ٧١٠ الذي كان «مسند الشام» في عصره (١٠٧) أي الوحيد في علو الاسناد في الشام.

١١) شملت الحماسة العلمية أيضا نساء البيت القدامى بحريم القادسية، فأدخلتهن في الجو العام لمولم القرآن والقرآنات والحديث والفقه. وقد سمعن على العديد من أقرابهن الشيخ وعلى غيرهم كما سمع عليهن عدد من كبار علماء

(١٠٣) القلائد ج ٢ ٢٧٩ وابن رجب - ذيل طبقات ٤٢٦/٢ - ٤٢٧.

(١٠٤) القلائد ج ٢ ٢٨٧/٢.

(١٠٥) ابن رجب ٣٢٨/٢ نقل عن الذهبي.

(١٠٦) القلائد ٢/٢٩٤.

عبد الهادي (١٩١) وقد «عد ابن رجب في الطبقات لشمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي المتوفى سنة ٧٤٤ سبعين مصنفًا يبلغ التام منها - كما قال - ما يزيد على مائة مجلد...» (١٠٠). وقد سجل الجلال ابن عبد الهادي قائمة مؤلفاته بنفسه فبلغت ٦٠٠ مؤلف.

٨) واهتم القادسية بالكتب وانشاء المكتبات لأنفسهم ومؤسستهم فالكثير منهم يذكروا في ترجمته أنه حصل الكتب الحسنة وأنه عمل في كتابتها وفي الاستنساخ وتحصيل الأصول. وبعض ثروة المكتبة الظاهرية في دمشق اليوم في المخطوطات آتية من الكتب التي كان وقفها الضياء المقدسي على مدرسته ووقفها الآخرون على المدرسة العمرية. ومثله في ذلك الجلال ابن عبد الهادي آخر المثلين الكبار للأسرة (توفى سنة ٩٠٩) فقد وهب مكتبته التي تريد على خمسة آلاف كتاب للمدرسة نفسها.

٩) ولا يكاد يوجد في هؤلاء القادسية من لم يسافر في طلب العلم على كبار الشيخ والحفاظ والمستندين. وبعضهم كان يطيل في الرحلة ويعد فيها وقد امتدت أسفارهم إلى أصبهان وروم ونيسابور وبخارى وهراة وإلى بغداد واربيل والموصل وحلب وحران وإلى الحرمين للدراسة والحج وبخاصة إلى مصر والاسكندرية ودمياط حتى ان بعضهم استقر في القاهرة وبعضهم صار قاصيا للقضاة وشيخا للشيخ فيها رغم حنبلية وشافعية الناس (١٠١) (كمحمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المتوفى ٦٧٦ / ٢٧٧) وقد بالغ بعضهم في السماع على الشيخ والرحلة اليهم حتى بلغ عدد شيوخه عدة مئات وبعضهم زاد على ٥٠٠ أو ٧٠٠ شيخ (كفضياء الدين المقدسي وتلقى الدين سليمان القدامى) (١٠٧) وبعضهم

(٩٩) القلائد ج ٢ ص ٣٢٠ - ٣٢١ وص ٣١٤ - ٣١٥ وابن رجب - ذيل الطبقات ١٨٨/٢ - ١٩٠ و ٤٣٧ - ٤٣٨.

(١٠٠) شذرات ١٤١/٦ وابن السامع نقل النص عن الذهبي ولم نجد النص في ابن رجب وله ترجمة في

تذكرة الحفاظ للذهبي ١٥٠٨/٤.

(١٠١) ابن رجب - ذيل الطبقات ٢/٢٩٤.

(١٠٢) المصدر السابق ٢/٢٣٧ و ٣٦٥ والدارس ٢/٣١٦.



روت صحيح البخارى عن ابن الزبدي (توفيت سنة ٦٩٩) (١١٠) وخديجة بنت محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد (الوفاة سنة ٦٩٥) وعائشة بنت عيسى بن الموفى (توفيت سنة ٦٠٧) وخديجة بنت محمد بن محمود بن عبد المنعم المسند (العابدة) وهى بنت حبيبة (توفيت سنة ٦٩٩) (١١١) وهديّة بنت عبد الرحمن بن أحد المسند المعروفة باسم قضية (توفيت سنة ٧٩٨) (١١٢) وست العرب بنت محمد بن فخر الدين الصالحية، المسندة للكثرة (الوفاة سنة ٧٦٧) والأختان فاطمة وعائشة ابنتا محمد بن عبد الهادي (توفيت الأولى سنة ٨٠٣ والثانية سنة ٨١٦ وكانت قبل سنوات من وفاتها مسندة الدنيا ورحلة الدنيا) (١١٣) غير أن هذه الأسماء تغيب في بقية القرن التاسع مع الغيب التدريجي لأسماء الأسرة.

١٢) لم يكن العلم هو الميزة الوحيدة التي أعطت آل قدامة مكانتهم وسمحت لهم بالبروز الواضح في المجتمع الشامي والاسلامي ولكن التدين العميق كان الميزة الأولى والأقوى. الورع كان أول الجناحين اللذين جلاهم وكان العلم الجناح الآخر. الانصراف الى الله كان «الصخرة» التي أقامت عليها الأجيال الأولى من المقادسة سمعة الأسرة وأتى العلم ليكون الصخرة الأخرى. وقد تمثل ذلك التدين في أمرين: المباشرة في العبادة والمباشرة في الزهد ورفض الدنيا. وتقرأ في تراجم الأئمة منهم أن عبد الغنى تقى الدين يصلّى ثلاثمائة ركعة الى قبل وقت الظهر ويقوم نصف الليل فما يزال يتوضأ ويقرأ ويكي الى الصبح. (١١٤) وأن أبا عمر محمد كان كثير الصيام سفراً وحضراً وأنه في آخر عمره سرد الصوم وكان يقرأ في الصلاة كل ليلة سبعمائة مرة ويقرأ جزءين من القرآن في الصلاة ويسجد سجدة طويلاً ويصلّي ويصلّي في كل يوم وليلة اثنتين وسبعين ركعة نافلة ويصلّي

- (١١٠) شذرات الذهب ٥/٢٠٨/٢٠٤٤ بالترييب.  
(١١١) نظر القلائد ٢/٣٠٧/٣٠٦ بالترييب.  
(١١٢) ابن العماد - شذرات ٦/٨٨٦.  
(١١٣) القلائد ج ٢ ص ٣٠٧/٢٨٨ بالترييب.  
(١١٤) ابن رجب ٢/١٢ وسبسط ابن الجوزي - مرآة الزمان (ط). حيدرآباد سنة ١٩٥٢ ج ٨ قسم ٢ ص ٥٢١ والقلائد ٢/٣٣٧.

العصر وسجلت أسماءهم في معاجم الشيخ وفي كتب التراجم والطبقات وبرز بعضهم برونًا سامن فيه أو سبقن الكثير من رجال المقادسة أنفسهم ومن غيرهم. والجو العلمي والاجتماعي العام في ذلك العصر كان مألوفاً فيه وجود عالّات وشيخات يروين الحديث عدا الشاعرات والكاتبات، كما كان مألوفاً اسماعهن والسماع عليهن وقد ألف ابن عساكر (المتوفى سنة ٥٧١) والذي عاصر هجرة المقادسة الى دمشق وتوطنهم في الصالحية، «كتاباً في من سمع منه من النسوان» (وكن نيفاً ونمائين شيخة وبعد قرن ونيف من ذلك كتب فخر الدين على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي مشيخة في كتاب (أسنى المقاصد وأعذب الموارد) وذكر في الجزء العاشر خمساً وعشرين شيخة بين مشايخه (١٠٨) وقد حملت الشيخات الألقاب كالرجال في ذلك العصر ولكن كانت هن ألقابهن المعايير من ست الناس الى ست العراق الى ست البهاء الى جلال النساء الى ست العرب وأمة اللطيف وست الفقهاء وست المعائم... ولو استعرضنا كتب التراجم في القرن السابع والثامن مثلاً لوجدنا أسماء حوالي ٢٥ سيّدة دمشقية من حوالي ٧٠ من العائلات اللواتي فرضن اسماءهن على أصحاب تلك الكتب الا اننا نلاحظ ان الحنبليات منهن كن اكثر عدداً بوضوح من الشافعيات. أما الحنفيات فأقل من الجماعتين. ونلاحظ أيضاً أن سيدات الأسرة القدامية هن الغالبات أيضاً بين الحنبليات، اللواتي كان منهن: رقية ورابعة ابنتا الشيخ أحمد وحبيبة بنت أبي عمر» (١٠٩) وآسية (أخت ضياء الدين) بنت عبد الواحد بن أحمد المقدسي المتوفاة سنة ٦٤٠ وكانت لا تكاد تدع قيام الليل) وسعيدة بنت عبد الملك من آل قدامة وكانت راوية للحديث (توفيت سنة ٦٤٠) وهديّة بنت عبد الحميد المقدسية التي

- (١٠٧) النعماني - المدارس ٢/٣٨٨.  
(١٠٨) انظر على بن بليان المقدسي: تخريج مشيخة الشيخ... فخر الدين على بن أحمد... مخطوط دار الكتب القاهرة بدمشق رقم (٢٤٨) حديث ورقة (٣٩) وقال بعد البسملة: ذكر ما تيسر جمه من مشيخة النساء سماعاً واجابة الشيخة الأولى... ست الكنية (التي توفيت سنة ٦٠٤)..  
الشيخة الثانية أم الفضل زينب... وهكذا حتى الخامسة والعشرين..  
(١٠٩) الشيخات الثلاث جاء ذكرهن في المخطوط السابق وفي غيره.



مواقف زملائهم العلماء منهم فانا نجد أن جواهر الناس والحكام قد عبروا عن نظرتهم اليهم :

أولاً : بالأوقاف التي كانوا يوقفونها على دروسهم ومؤسستهم وقد ذكر ابن عبد الهادي أنه : «قل سنة من السنين تقضى (على المدرسة العمرية) إلا ويصير إليها فيها وقف . فوقها لا يمكن حصرة» (١٢١) ومثل ذلك المدرسة الضيائية ودير الجبالة والجامع المنفري .

ثانياً : في تشييع جنازتهم فقد كانت مواكب تاريخية سجلها المؤرخون على أنها ظاهرات خاصة تلت الانتظار في عدد المشيعين أو نوعيتهم (فهم يضمون الأمراء والأئمة والشيخ مع الخلق الكثير) أو في اقتتال الناس على الظفر جاء التمسيل أو قطعة من الكفن للبركة :

فحين مات مثلاً أبو عمر «من وصل الى الماء الذي غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم ولم يتخلف عن جنازته أحد من القضاة والمعلماء والأعيان وعامة الخلق وكان يوماً مشهوداً .. وكان يوماً شديداً الحرقا قبلت غمامة فأظلت الناس الى قبره وكان يسمع منها دوي كدوى النحل ولولا المبارز المتد والشيخ بن محارب وشبل الدولة الحسامي (قواد الجند) ما وصل الى قبره من كفيه شيء وأنا أحاطوا به بالسيوف والديابيس .. وحزر من حضر جنازته فكنا نواحد عشرين ألفاً» (١٢٢) وحين توفي عماد الدين ابراهيم بن عبد الواحد سنة ٦١٤ قال سبط ابن الجوزي «أخرجت جنازته الى جامع دمشق (الأموي) فما وسع الناس الجامع .. وكان يوماً لم ير الاسلام مثله . كان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل الى الكهف وآخرهم بباب الفرائس (١٢٣) ولولا المبارز المتد وأصحابه لقطعوا أكفانه وما وصل الى الجبل الى آخر

(١٢١) النعمي - الدارس ج ٢ ص ١١١ .  
(١٢٢) ابن رجب - ٦٠/٢ وسط ابن الجوزي ٥٥١/٢ - ٥٥٢ .  
(١٢٣) أحد أبواب دمشق من جهة الشمال ويواجه الصالحية والقصور أن مركب الجبارة كان يبلغ حوالي ثلاثة كيلو مترات .

الضحى وبقراً قل هو الله أحد ألف مرة (١١٥) و ابراهيم بن عبد الواحد (شقيق عبد الغني) كان يطيل الركوع والسجود و يكثّر من قضاء الصلوات وربما قضى الصلوة الواحدة عن مائة سنة وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً و يكثّر من الدعاء بالليل والنهار (١١٦) وأن الموقف عبد الله بن الشيخ أحمد كان «كثير العبادة دائم السجود . لم ير مثله ولم ير مثله نفسه» (١١٧) وأن شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر (سريع الدفعة ، كثير الذكر لله والقيام بالليل ويصلي بين المشاعين .. كثير الدعاء والابتهاال ..) (١١٨) ولم تكن نساؤهم بأقل من الرجال في هذا كله فهذه آسية أخت ضياء الدين التي لا تكاد تدع قيام الليل وتلك الزاهدة حبيبة وثالثة هي خديجة المسعدة العبادة الكثيرة التلاوة وهكذا . ونسمع من جهة أخرى عن هؤلاء وأهلهم مبالغتهم في احتقار الدنيا . وأبو عمر كان يبقى في الشتاء بجهة بغير قميص ، يلبس الخشن و ينام على الحصير «وأنه لم يخلف ديناراً ولا درهما ولا قليلاً ولا كثيراً» (١١٩) وأن شمس الدين محمد بن عبد الرحيم كان متقللاً من الدنيا .. وكان يخفر مكاناً في الجبل لبعض شأنه فوجد جرة مملوءة دنائير وكانت زوجته معه تعينه في الحفر فاسترجع وطم المكان كما كان وقال لزوجته هذه فتنة ولعل لها مستحقين لا يعرفهم وعاهدوا على أنها لا تشرب بذلك أحداً ولا تتعرض اليه ..» (١٢٠) و يذكر عن غير هذا وذاك صفات تجعل من هذه المجموعة جيلاً خاصاً من الناس ليس كمثله جيل في اقامة الدين والقرب من الله .

وقد نجم عن ذلك أن «المقادة» أضحوا في اعتقاد الناس نماذج «دينية عليا» ونجد أصداء هذا الاعتقاد وصوره في عدد من الظاهر : فإذا نحن تجاوزنا الطريقة التبجيلية التي صيغت فيها تراجمهم في كتب التراجم والتي تمكس حتى

(١١٥) انظر سبط ابن الجوزي - مرآة ج ٨ ص ٥٤٧ وابن رجب ٥٢/٢ - ٥٤ .  
(١١٦) ابن رجب ٩٩/٢ .  
(١١٧) ابن رجب ١٣٤/٢ وانظر القلائد ٣٤١/٢ .  
(١١٨) المصدر نفسه ٣٠٩/٢ .  
(١١٩) ابن رجب ٥٤٢/٢ و ٥٤٣/٢ وسط ابن الجوزي - مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٨٤ و ٥٥١ .  
(١٢٠) المصدر نفسه ٣٢١/٢ والنعمي - الدارس ٩٦/٢ .



عمر وأخاه حضرا فتفتح القدس مع صلاح الدين (١١٨) وبعضهم حضر ممركة دمياط في الحملة الصليبية الخامسة (١١٩) للوعظ والتحرير على الجهاد وبعضهم ركب الخيل ولبس السلاح مع مشيخته وحضر القتال (مثل القاضي أحمد بن عبد الرحمن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٦٨٩ الذي شهد فتح طرابلس وطرد الصليبيين منها) (١٢٠) كما ذكر عن غير هؤلاء الاشتراك في الجهاد كضياء الدين محمد بن عبد الواحد أو حضور الفتوحات كعبد الرحمن بن محمد شمس الدين وفخر الدين على بن أحمد بن عبد الواحد (١٢١).

وبعض آل قدامة كان يقوم بأعمال الاحساب لوجه الله فكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولو أغضب ذلك أولى الأمر مثل تقي الدين عبد الغنى بن عبد الواحد الذي كان لا يرى منكرا الا غيره بيده أو لسانه وكثيرا ما شوهده يهرق الخمر ويكسر الشبابات والطنابير (١٢٢) ومثل عماد الدين ابراهيم بن عبد الواحد (شقيق عبد الغنى) الذي خرج مرة على جمع من الفساق فكسر معهم فضر يوه حتى غشي عليه (١٢٣) وأحمد بن عيسى الصالحى وابراهيم بن عبد الله التمامي وكل منهما كان «أمارا بالمعروف قولا بالحق» (١٢٤).

وتكاد لا ترى ترجمة واحد من هذه الجماعة الا وقد أعطى فيها من الصفات ما يجعله النموذج الدينى — الانسانى للآخرين وتتلخص هذه الصفات في الصدقة وحب الفقراء والخير وفي التواضع واللين والحياء، وفي جميل السيرة

- (١٢٨) ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ٥٦/٢  
(١٢٩) المصدر السابق ص ١٨٦  
(١٣٠) المصدر السابق ٣٢٢/٢  
(١٣١) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢ ص ٢٣٧ ثم ٣٠٥  
(١٣٢) ابن رجب — ذيل طبقات الحنابلة ١٢/٢ — ١٣  
(١٣٣) التلاد ٣٣٦/٢ وابن رجب ذيل الطبقات ٥/٢  
(١٣٤) التلاد ٣٣٩/٢  
(١٣٥) ابن رجب — ذيل الطبقات ٢٤١/٢ و ٢٧٨

النهار وتأسملت الناس من أعلى قاسيون الى الكهف الى قريب المطور لورمى الانسان عليهم الابرة لا ضاعت...» (١٢٤) وتعتمد مثل هذه الصور الجنازية لعدد من شيوخ القادسية الآخرين وشيخاتهم (١٢٥).  
ثالثا : تصعيد الاحترام لم درجة رؤية الناس الاحلام والنامات عن جميل مقامهم في الآخرة ودرجة نسبة الكرامات الخارقة اليهم. وتقرأ في التراجم قصصا عديدة من خوارقهم ومكاشفاتهم (١٢٦).  
وبعضهم صار عند الناس بل الشيوخ قلب الوقت «ومن العلماء الربانيين» «و بركة العصر» (١٢٧) وأحد أولياء الله .

على أن هذا الجو الدينى كله أخذ في التبدد بالتدريج بعد الأجيال الأولى. قلّ التهجيد وقيام الليل وقراءة القرآن والأورد وقت الكرامات بالطبع وإنما بقى لهم، منذ أواسط القرن السابع، التميز بالملم الذى ظل دعامة المقادسة قرنا آخر ثم تضاعف الملم بدوره ليبقى لهم جاه «الوظائف الدينية» ومقامها... قرنا آخر قبل أن ينطفئ في الأسرة تألقها الأخير .

١٣ — ومعظم الأجيال الأولى من آل قدامة كانوا يقرنون الملم بالعمل ابتغاء الأجر والأسوة الحسنة فلمهم مشاركات في الجهاد : مثل ذلك أن أبا

(١٢٤) سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان ج ٨ ص ٥٨٨ وابن رجب ١٠٤/٢ ولما المبارز الذى ورد ذكره مرتين فهو الامير مبارز الدين سبط الحلي الصلاحى توفى سنة ٦٢٣ وقد ظل شحنة دمشق أربعين سنة (انظر ابن كثير — البداية والنهاية ج ١٣/١١٥ — ١١٦) وفي السنة نفسها توفى شيل الدولة كافور الحسامي (المصدر نفسه).

(١٢٥) انظر في ذلك مثلا ابن رجب ج ٢ الصفحات ٣٠٨/١٠٤ و ٣٣٨/٤٢٠ و ٤٢٧/٤٢٠  
(١٢٦) انظر في ذلك سبط ابن الجوزي ٥٤٨/٢ — ١٧٨ و ٣٢٠ وابن رجب ١٦/٢ و ٦٤ و ١٠٠ و ٢٣٥ و ٢٣٧ و ٢٧٨... الخ.  
والتلاد ج ٢ ص ٤٢٠ — ٤٢٦.

(١٢٧) انظر هذا اللقب لابي عمر ولبيد الغني وضياء الدين... لدى ابن رجب ٥٨/٢ وص ٥ وص ٢٣٧ وص ٣٠٧ و ٣٠٨... الخ وللاحظ أن هذا الوصف انما يأتي من شيخ الحنابلة اكر من غيرهم.



عبد الواحد (المتوفى سنة ٦٧٦هـ) وكان قد نزل مصر سنة ٦٤٠هـ وبلغ فيها منصب قاضي القضاة وشيخ الشيوخ، وكانت تلك أول مرة يقول فيها جنبل هذا المنصب في مصر. وقد اتهم في ودائع أودعت عنده كرها ثم أخذت من بيته فاعتقل سنة ٦٧٠هـ في السجن سنتين ثم أطلق فلم يزل يفتي و يقرى حتى توفي. (١٣١) وبالرغم من أن بعض هؤلاء القادة كانوا لا يأبهون للحكام كالذي روه أن الملك العادل زار الشيخ أبا عمر وجاعة في خيمتهم، عند حصار القدس، وأبو عمر في الصلاة فما قطعها ولا التفت إليه ولا ترك ورده (١٤٠) وبالرغم من أن بعضهم كان منقطعاً عن الحكام أو «عزواً عن المناصب» أو كان «متواضعاً عند العامة مترفعاً عند الملوك» (١٤١) إلا أن الجمهرة من رجال الأسرة كانوا على أحسن الصلات مع مختلف الحكام اعتباراً من نور الدين مروراً بالملوك الأيوبيين وانتهاء بنواب السلطنة المماليك في دمشق كما كانوا على علاقات مرضية بزملائهم شيوخ المذاهب الأخرى وقد سمحت لهم هذه الصلات والعلاقات بأن يتلقوا من جانب السلطات على الدوام، أحسن الاحترام وأجزل الجبات وأن يتولوا أعلى المناصب وأن ينعموا بين هذا وذاك وذلك برىح الأوقاف المخصصة لوظائفهم ومنابرهم الخيرية. وحتى الرعي الأول المؤسس رغم تدينه العميق الشديد لم يجد تناقضاً بين ورعه الديني وبين تقبل سلوك الحكام وهو سلوك لم يكن في أي حال - فيما عدا الجهاد - متفقاً كثيراً مع مبادئ الدين. كان اتفاق العلم والعمل عندهم يقتصر على المستوى الشخصي ولا يمتد إلى المستوى الاجتماعي والقضاي العامة فلم يتحول الوجود الجبلي المشدد مرة لمجابهة النظام والفتات الحاكمة وبقي محصوراً في نطاق السلوك الفردي لأصحابه وللناس .

## ١٥ - نتيجة هذا كله تعاون آل قدامة ورجال الأسر التي دارت في فلكهم ومنذ العهد الأيوبي مع الطبقات الحاكمة وصاروا جزءاً منها ومن النظام

- (١٣٩) ابن رجب - ذيل الطبقات ٢/٣٩٤.  
(١٤٠) المصدر نفسه ٢/٥٦.  
(١٤١) المصدر نفسه ٢/١٣٧ و ٣٠٦.

والمرؤعة وقضاء الخوارج، وفي القناعة والغرور عن الدنيا... (١٣٨) وقد وصف بعض المتأخرين منهم بأنه «العالم القدوة» أو «الزاهد القدوة» (١٣٧) فكأنهم كانوا يجسدون في ذلك كله مفهوم الدين عندهم، وتطبيق المثل الدينية في الحياة ولعلنا لانسى أن هذا السلوك الجياني، بصرف النظر عن صدقه، كان أحد المعاصر في رأسما لم من السمعة لدى الناس.

١٤ - ويتصل بالأمر السابق ويتفرع عنه موضوع العلاقة بين هذه الأسرة والأسر المتصلة بها من جهة وبين الحكام وزملائهم العلماء من جهة أخرى. وقد كانت هذه العلاقة على الدوام حسنة وطيدة ونذر أن تعكرت فلم تأخذ حيلتهم طريق التعصب الحاد والعداء وتخريف الجميع الذي أخذته المواقف الخيرية العنيفة في بغداد في القرنين الخامس والسادس. فإذا تجاوزنا مواقف الحسد والرحام على الوظائف التي تعرضوا لها أحياناً كثيرة فأبرز حوادث الخلاف التي وقعوا بها حادثتان: الأولى مشكلة الحفاظ عبد الغني بن عبد الواحد (المتوفى سنة ٦٠٠/١٢٠٣) الذي تكلم في جامع دمشق في صفات الله وفي القرآن الكريم كلاماً رفضه الفقهاء وحملوا الملك العظيم عيسى والعصارم برغش والى دمشق على الفناء منبره التدريسي في الجامع فضايق بالأمير ووضي إلى بعليبك ثم إلى مصر ولكنهم هناك أيضاً عادوا فضيقوا عليه ثم كلموا الملك المعادل وأكثروا فكذب بأخراجه من مصر ولكن الحفاظ توفي قبل وصول الكتاب (١٣٨)

وأما الحادثة الثانية فصاحبها هو شمس الدين محمد بن إبراهيم بن

- (١٣٩) من المصنف إجماع الصفحات التي تحدثت في صفات القادة ويكفي أن نشير إلى بعضها في مرجع واحد: انظر مثلاً ابن رجب ذيل الطبقات ٢/الصفحات ١١/٥٢، ١٢/٩٤، ١٣/٩٧، ١٤/٩٧، ١٥/١٣٤، ١٦/١٣٧، ١٧/١٨٥، ١٨/٢٣١، ١٩/٢٣٥، ٢٠/٢٩٥، ٢١/٣٠٤، ٢٢/٣١٣، ٢٣/٣١٩، ٢٤/٣٢٦، ٢٥/٣٢٨، ٢٦/٣٣٥، ٢٧/٣٤١، ٢٨/٣٤٢، ٢٩/٣٤٣، ٣٠/٣٤٤، ٣١/٣٤٦، ٣٢/٣٤٨، ٣٣/٣٥٠، ٣٤/٣٥٢، ٣٥/٣٥٤، ٣٦/٣٥٦، ٣٧/٣٥٨، ٣٨/٣٦٠، ٣٩/٣٦٢، ٤٠/٣٦٤، ٤١/٣٦٦، ٤٢/٣٦٨، ٤٣/٣٧٠، ٤٤/٣٧٢، ٤٥/٣٧٤، ٤٦/٣٧٦، ٤٧/٣٧٨، ٤٨/٣٨٠، ٤٩/٣٨٢، ٥٠/٣٨٤، ٥١/٣٨٦، ٥٢/٣٨٨، ٥٣/٣٩٠، ٥٤/٣٩٢، ٥٥/٣٩٤، ٥٦/٣٩٦، ٥٧/٣٩٨، ٥٨/٣٩٩، ٥٩/٣٩٩، ٦٠/٣٩٩، ٦١/٣٩٩، ٦٢/٣٩٩، ٦٣/٣٩٩، ٦٤/٣٩٩، ٦٥/٣٩٩، ٦٦/٣٩٩، ٦٧/٣٩٩، ٦٨/٣٩٩، ٦٩/٣٩٩، ٧٠/٣٩٩، ٧١/٣٩٩، ٧٢/٣٩٩، ٧٣/٣٩٩، ٧٤/٣٩٩، ٧٥/٣٩٩، ٧٦/٣٩٩، ٧٧/٣٩٩، ٧٨/٣٩٩، ٧٩/٣٩٩، ٨٠/٣٩٩، ٨١/٣٩٩، ٨٢/٣٩٩، ٨٣/٣٩٩، ٨٤/٣٩٩، ٨٥/٣٩٩، ٨٦/٣٩٩، ٨٧/٣٩٩، ٨٨/٣٩٩، ٨٩/٣٩٩، ٩٠/٣٩٩، ٩١/٣٩٩، ٩٢/٣٩٩، ٩٣/٣٩٩، ٩٤/٣٩٩، ٩٥/٣٩٩، ٩٦/٣٩٩، ٩٧/٣٩٩، ٩٨/٣٩٩، ٩٩/٣٩٩، ١٠٠/٣٩٩، ١٠١/٣٩٩، ١٠٢/٣٩٩، ١٠٣/٣٩٩، ١٠٤/٣٩٩، ١٠٥/٣٩٩، ١٠٦/٣٩٩، ١٠٧/٣٩٩، ١٠٨/٣٩٩، ١٠٩/٣٩٩، ١١٠/٣٩٩، ١١١/٣٩٩، ١١٢/٣٩٩، ١١٣/٣٩٩، ١١٤/٣٩٩، ١١٥/٣٩٩، ١١٦/٣٩٩، ١١٧/٣٩٩، ١١٨/٣٩٩، ١١٩/٣٩٩، ١٢٠/٣٩٩، ١٢١/٣٩٩، ١٢٢/٣٩٩، ١٢٣/٣٩٩، ١٢٤/٣٩٩، ١٢٥/٣٩٩، ١٢٦/٣٩٩، ١٢٧/٣٩٩، ١٢٨/٣٩٩، ١٢٩/٣٩٩، ١٣٠/٣٩٩، ١٣١/٣٩٩، ١٣٢/٣٩٩، ١٣٣/٣٩٩، ١٣٤/٣٩٩، ١٣٥/٣٩٩، ١٣٦/٣٩٩، ١٣٧/٣٩٩، ١٣٨/٣٩٩، ١٣٩/٣٩٩، ١٤٠/٣٩٩، ١٤١/٣٩٩، ١٤٢/٣٩٩، ١٤٣/٣٩٩، ١٤٤/٣٩٩، ١٤٥/٣٩٩، ١٤٦/٣٩٩، ١٤٧/٣٩٩، ١٤٨/٣٩٩، ١٤٩/٣٩٩، ١٥٠/٣٩٩، ١٥١/٣٩٩، ١٥٢/٣٩٩، ١٥٣/٣٩٩، ١٥٤/٣٩٩، ١٥٥/٣٩٩، ١٥٦/٣٩٩، ١٥٧/٣٩٩، ١٥٨/٣٩٩، ١٥٩/٣٩٩، ١٦٠/٣٩٩، ١٦١/٣٩٩، ١٦٢/٣٩٩، ١٦٣/٣٩٩، ١٦٤/٣٩٩، ١٦٥/٣٩٩، ١٦٦/٣٩٩، ١٦٧/٣٩٩، ١٦٨/٣٩٩، ١٦٩/٣٩٩، ١٧٠/٣٩٩، ١٧١/٣٩٩، ١٧٢/٣٩٩، ١٧٣/٣٩٩، ١٧٤/٣٩٩، ١٧٥/٣٩٩، ١٧٦/٣٩٩، ١٧٧/٣٩٩، ١٧٨/٣٩٩، ١٧٩/٣٩٩، ١٨٠/٣٩٩، ١٨١/٣٩٩، ١٨٢/٣٩٩، ١٨٣/٣٩٩، ١٨٤/٣٩٩، ١٨٥/٣٩٩، ١٨٦/٣٩٩، ١٨٧/٣٩٩، ١٨٨/٣٩٩، ١٨٩/٣٩٩، ١٩٠/٣٩٩، ١٩١/٣٩٩، ١٩٢/٣٩٩، ١٩٣/٣٩٩، ١٩٤/٣٩٩، ١٩٥/٣٩٩، ١٩٦/٣٩٩، ١٩٧/٣٩٩، ١٩٨/٣٩٩، ١٩٩/٣٩٩، ٢٠٠/٣٩٩، ٢٠١/٣٩٩، ٢٠٢/٣٩٩، ٢٠٣/٣٩٩، ٢٠٤/٣٩٩، ٢٠٥/٣٩٩، ٢٠٦/٣٩٩، ٢٠٧/٣٩٩، ٢٠٨/٣٩٩، ٢٠٩/٣٩٩، ٢١٠/٣٩٩، ٢١١/٣٩٩، ٢١٢/٣٩٩، ٢١٣/٣٩٩، ٢١٤/٣٩٩، ٢١٥/٣٩٩، ٢١٦/٣٩٩، ٢١٧/٣٩٩، ٢١٨/٣٩٩، ٢١٩/٣٩٩، ٢٢٠/٣٩٩، ٢٢١/٣٩٩، ٢٢٢/٣٩٩، ٢٢٣/٣٩٩، ٢٢٤/٣٩٩، ٢٢٥/٣٩٩، ٢٢٦/٣٩٩، ٢٢٧/٣٩٩، ٢٢٨/٣٩٩، ٢٢٩/٣٩٩، ٢٣٠/٣٩٩، ٢٣١/٣٩٩، ٢٣٢/٣٩٩، ٢٣٣/٣٩٩، ٢٣٤/٣٩٩، ٢٣٥/٣٩٩، ٢٣٦/٣٩٩، ٢٣٧/٣٩٩، ٢٣٨/٣٩٩، ٢٣٩/٣٩٩، ٢٤٠/٣٩٩، ٢٤١/٣٩٩، ٢٤٢/٣٩٩، ٢٤٣/٣٩٩، ٢٤٤/٣٩٩، ٢٤٥/٣٩٩، ٢٤٦/٣٩٩، ٢٤٧/٣٩٩، ٢٤٨/٣٩٩، ٢٤٩/٣٩٩، ٢٥٠/٣٩٩، ٢٥١/٣٩٩، ٢٥٢/٣٩٩، ٢٥٣/٣٩٩، ٢٥٤/٣٩٩، ٢٥٥/٣٩٩، ٢٥٦/٣٩٩، ٢٥٧/٣٩٩، ٢٥٨/٣٩٩، ٢٥٩/٣٩٩، ٢٦٠/٣٩٩، ٢٦١/٣٩٩، ٢٦٢/٣٩٩، ٢٦٣/٣٩٩، ٢٦٤/٣٩٩، ٢٦٥/٣٩٩، ٢٦٦/٣٩٩، ٢٦٧/٣٩٩، ٢٦٨/٣٩٩، ٢٦٩/٣٩٩، ٢٧٠/٣٩٩، ٢٧١/٣٩٩، ٢٧٢/٣٩٩، ٢٧٣/٣٩٩، ٢٧٤/٣٩٩، ٢٧٥/٣٩٩، ٢٧٦/٣٩٩، ٢٧٧/٣٩٩، ٢٧٨/٣٩٩، ٢٧٩/٣٩٩، ٢٨٠/٣٩٩، ٢٨١/٣٩٩، ٢٨٢/٣٩٩، ٢٨٣/٣٩٩، ٢٨٤/٣٩٩، ٢٨٥/٣٩٩، ٢٨٦/٣٩٩، ٢٨٧/٣٩٩، ٢٨٨/٣٩٩، ٢٨٩/٣٩٩، ٢٩٠/٣٩٩، ٢٩١/٣٩٩، ٢٩٢/٣٩٩، ٢٩٣/٣٩٩، ٢٩٤/٣٩٩، ٢٩٥/٣٩٩، ٢٩٦/٣٩٩، ٢٩٧/٣٩٩، ٢٩٨/٣٩٩، ٢٩٩/٣٩٩، ٣٠٠/٣٩٩، ٣٠١/٣٩٩، ٣٠٢/٣٩٩، ٣٠٣/٣٩٩، ٣٠٤/٣٩٩، ٣٠٥/٣٩٩، ٣٠٦/٣٩٩، ٣٠٧/٣٩٩، ٣٠٨/٣٩٩، ٣٠٩/٣٩٩، ٣١٠/٣٩٩، ٣١١/٣٩٩، ٣١٢/٣٩٩، ٣١٣/٣٩٩، ٣١٤/٣٩٩، ٣١٥/٣٩٩، ٣١٦/٣٩٩، ٣١٧/٣٩٩، ٣١٨/٣٩٩، ٣١٩/٣٩٩، ٣٢٠/٣٩٩، ٣٢١/٣٩٩، ٣٢٢/٣٩٩، ٣٢٣/٣٩٩، ٣٢٤/٣٩٩، ٣٢٥/٣٩٩، ٣٢٦/٣٩٩، ٣٢٧/٣٩٩، ٣٢٨/٣٩٩، ٣٢٩/٣٩٩، ٣٣٠/٣٩٩، ٣٣١/٣٩٩، ٣٣٢/٣٩٩، ٣٣٣/٣٩٩، ٣٣٤/٣٩٩، ٣٣٥/٣٩٩، ٣٣٦/٣٩٩، ٣٣٧/٣٩٩، ٣٣٨/٣٩٩، ٣٣٩/٣٩٩، ٣٤٠/٣٩٩، ٣٤١/٣٩٩، ٣٤٢/٣٩٩، ٣٤٣/٣٩٩، ٣٤٤/٣٩٩، ٣٤٥/٣٩٩، ٣٤٦/٣٩٩، ٣٤٧/٣٩٩، ٣٤٨/٣٩٩، ٣٤٩/٣٩٩، ٣٥٠/٣٩٩، ٣٥١/٣٩٩، ٣٥٢/٣٩٩، ٣٥٣/٣٩٩، ٣٥٤/٣٩٩، ٣٥٥/٣٩٩، ٣٥٦/٣٩٩، ٣٥٧/٣٩٩، ٣٥٨/٣٩٩، ٣٥٩/٣٩٩، ٣٦٠/٣٩٩، ٣٦١/٣٩٩، ٣٦٢/٣٩٩، ٣٦٣/٣٩٩، ٣٦٤/٣٩٩، ٣٦٥/٣٩٩، ٣٦٦/٣٩٩، ٣٦٧/٣٩٩، ٣٦٨/٣٩٩، ٣٦٩/٣٩٩، ٣٧٠/٣٩٩، ٣٧١/٣٩٩، ٣٧٢/٣٩٩، ٣٧٣/٣٩٩، ٣٧٤/٣٩٩، ٣٧٥/٣٩٩، ٣٧٦/٣٩٩، ٣٧٧/٣٩٩، ٣٧٨/٣٩٩، ٣٧٩/٣٩٩، ٣٨٠/٣٩٩، ٣٨١/٣٩٩، ٣٨٢/٣٩٩، ٣٨٣/٣٩٩، ٣٨٤/٣٩٩، ٣٨٥/٣٩٩، ٣٨٦/٣٩٩، ٣٨٧/٣٩٩، ٣٨٨/٣٩٩، ٣٨٩/٣٩٩، ٣٩٠/٣٩٩، ٣٩١/٣٩٩، ٣٩٢/٣٩٩، ٣٩٣/٣٩٩، ٣٩٤/٣٩٩، ٣٩٥/٣٩٩، ٣٩٦/٣٩٩، ٣٩٧/٣٩٩، ٣٩٨/٣٩٩، ٣٩٩/٣٩٩، ٤٠٠/٣٩٩، ٤٠١/٣٩٩، ٤٠٢/٣٩٩، ٤٠٣/٣٩٩، ٤٠٤/٣٩٩، ٤٠٥/٣٩٩، ٤٠٦/٣٩٩، ٤٠٧/٣٩٩، ٤٠٨/٣٩٩، ٤٠٩/٣٩٩، ٤١٠/٣٩٩، ٤١١/٣٩٩، ٤١٢/٣٩٩، ٤١٣/٣٩٩، ٤١٤/٣٩٩، ٤١٥/٣٩٩، ٤١٦/٣٩٩، ٤١٧/٣٩٩، ٤١٨/٣٩٩، ٤١٩/٣٩٩، ٤٢٠/٣٩٩، ٤٢١/٣٩٩، ٤٢٢/٣٩٩، ٤٢٣/٣٩٩، ٤٢٤/٣٩٩، ٤٢٥/٣٩٩، ٤٢٦/٣٩٩، ٤٢٧/٣٩٩، ٤٢٨/٣٩٩، ٤٢٩/٣٩٩، ٤٣٠/٣٩٩، ٤٣١/٣٩٩، ٤٣٢/٣٩٩، ٤٣٣/٣٩٩، ٤٣٤/٣٩٩، ٤٣٥/٣٩٩، ٤٣٦/٣٩٩، ٤٣٧/٣٩٩، ٤٣٨/٣٩٩، ٤٣٩/٣٩٩، ٤٤٠/٣٩٩، ٤٤١/٣٩٩، ٤٤٢/٣٩٩، ٤٤٣/٣٩٩، ٤٤٤/٣٩٩، ٤٤٥/٣٩٩، ٤٤٦/٣٩٩، ٤٤٧/٣٩٩، ٤٤٨/٣٩٩، ٤٤٩/٣٩٩، ٤٥٠/٣٩٩، ٤٥١/٣٩٩، ٤٥٢/٣٩٩، ٤٥٣/٣٩٩، ٤٥٤/٣٩٩، ٤٥٥/٣٩٩، ٤٥٦/٣٩٩، ٤٥٧/٣٩٩، ٤٥٨/٣٩٩، ٤٥٩/٣٩٩، ٤٦٠/٣٩٩، ٤٦١/٣٩٩، ٤٦٢/٣٩٩، ٤٦٣/٣٩٩، ٤٦٤/٣٩٩، ٤٦٥/٣٩٩، ٤٦٦/٣٩٩، ٤٦٧/٣٩٩، ٤٦٨/٣٩٩، ٤٦٩/٣٩٩، ٤٧٠/٣٩٩، ٤٧١/٣٩٩، ٤٧٢/٣٩٩، ٤٧٣/٣٩٩، ٤٧٤/٣٩٩، ٤٧٥/٣٩٩، ٤٧٦/٣٩٩، ٤٧٧/٣٩٩، ٤٧٨/٣٩٩، ٤٧٩/٣٩٩، ٤٨٠/٣٩٩، ٤٨١/٣٩٩، ٤٨٢/٣٩٩، ٤٨٣/٣٩٩، ٤٨٤/٣٩٩، ٤٨٥/٣٩٩، ٤٨٦/٣٩٩، ٤٨٧/٣٩٩، ٤٨٨/٣٩٩، ٤٨٩/٣٩٩، ٤٩٠/٣٩٩، ٤٩١/٣٩٩، ٤٩٢/٣٩٩، ٤٩٣/٣٩٩، ٤٩٤/٣٩٩، ٤٩٥/٣٩٩، ٤٩٦/٣٩٩، ٤٩٧/٣٩٩، ٤٩٨/٣٩٩، ٤٩٩/٣٩٩، ٥٠٠/٣٩٩، ٥٠١/٣٩٩، ٥٠٢/٣٩٩، ٥٠٣/٣٩٩، ٥٠٤/٣٩٩، ٥٠٥/٣٩٩، ٥٠٦/٣٩٩، ٥٠٧/٣٩٩، ٥٠٨/٣٩٩، ٥٠٩/٣٩٩، ٥١٠/٣٩٩، ٥١١/٣٩٩، ٥١٢/٣٩٩، ٥١٣/٣٩٩، ٥١٤/٣٩٩، ٥١٥/٣٩٩، ٥١٦/٣٩٩، ٥١٧/٣٩٩، ٥١٨/٣٩٩، ٥١٩/٣٩٩، ٥٢٠/٣٩٩، ٥٢١/٣٩٩، ٥٢٢/٣٩٩، ٥٢٣/٣٩٩، ٥٢٤/٣٩٩، ٥٢٥/٣٩٩، ٥٢٦/٣٩٩، ٥٢٧/٣٩٩، ٥٢٨/٣٩٩، ٥٢٩/٣٩٩، ٥٣٠/٣٩٩، ٥٣١/٣٩٩، ٥٣٢/٣٩٩، ٥٣٣/٣٩٩، ٥٣٤/٣٩٩، ٥٣٥/٣٩٩، ٥٣٦/٣٩٩، ٥٣٧/٣٩٩، ٥٣٨/٣٩٩، ٥٣٩/٣٩٩، ٥٤٠/٣٩٩، ٥٤١/٣٩٩، ٥٤٢/٣٩٩، ٥٤٣/٣٩٩، ٥٤٤/٣٩٩، ٥٤٥/٣٩٩، ٥٤٦/٣٩٩، ٥٤٧/٣٩٩، ٥٤٨/٣٩٩، ٥٤٩/٣٩٩، ٥٥٠/٣٩٩، ٥٥١/٣٩٩، ٥٥٢/٣٩٩، ٥٥٣/٣٩٩، ٥٥٤/٣٩٩، ٥٥٥/٣٩٩، ٥٥٦/٣٩٩، ٥٥٧/٣٩٩، ٥٥٨/٣٩٩، ٥٥٩/٣٩٩، ٥٦٠/٣٩٩، ٥٦١/٣٩٩، ٥٦٢/٣٩٩، ٥٦٣/٣٩٩، ٥٦٤/٣٩٩، ٥٦٥/٣٩٩، ٥٦٦/٣٩٩، ٥٦٧/٣٩٩، ٥٦٨/٣٩٩، ٥٦٩/٣٩٩، ٥٧٠/٣٩٩، ٥٧١/٣٩٩، ٥٧٢/٣٩٩، ٥٧٣/٣٩٩، ٥٧٤/٣٩٩، ٥٧٥/٣٩٩، ٥٧٦/٣٩٩، ٥٧٧/٣٩٩، ٥٧٨/٣٩٩، ٥٧٩/٣٩٩، ٥٨٠/٣٩٩، ٥٨١/٣٩٩، ٥٨٢/٣٩٩، ٥٨٣/٣٩٩، ٥٨٤/٣٩٩، ٥٨٥/٣٩٩، ٥٨٦/٣٩٩، ٥٨٧/٣٩٩، ٥٨٨/٣٩٩، ٥٨٩/٣٩٩، ٥٩٠/٣٩٩، ٥٩١/٣٩٩، ٥٩٢/٣٩٩، ٥٩٣/٣٩٩، ٥٩٤/٣٩٩، ٥٩٥/٣٩٩، ٥٩٦/٣٩٩، ٥٩٧/٣٩٩، ٥٩٨/٣٩٩، ٥٩٩/٣٩٩، ٦٠٠/٣٩٩، ٦٠١/٣٩٩، ٦٠٢/٣٩٩، ٦٠٣/٣٩٩، ٦٠٤/٣٩٩، ٦٠٥/٣٩٩، ٦٠٦/٣٩٩، ٦٠٧/٣٩٩، ٦٠٨/٣٩٩، ٦٠٩/٣٩٩، ٦١٠/٣٩٩، ٦١١/٣٩٩، ٦١٢/٣٩٩، ٦١٣/٣٩٩، ٦١٤/٣٩٩، ٦١٥/٣٩٩، ٦١٦/٣٩٩، ٦١٧/٣٩٩، ٦١٨/٣٩٩، ٦١٩/٣٩٩، ٦٢٠/٣٩٩، ٦٢١/٣٩٩، ٦٢٢/٣٩٩، ٦٢٣/٣٩٩، ٦٢٤/٣٩٩، ٦٢٥/٣٩٩، ٦٢٦/٣٩٩، ٦٢٧/٣٩٩، ٦٢٨/٣٩٩، ٦٢٩/٣٩٩، ٦٣٠/٣٩٩، ٦٣١/٣٩٩، ٦٣٢/٣٩٩، ٦٣٣/٣٩٩، ٦٣٤/٣٩٩، ٦٣٥/٣٩٩، ٦٣٦/٣٩٩، ٦٣٧/٣٩٩، ٦٣٨/٣٩٩، ٦٣٩/٣٩٩، ٦٤٠/٣٩٩، ٦٤١/٣٩٩، ٦٤٢/٣٩٩، ٦٤٣/٣٩٩، ٦٤٤/٣٩٩، ٦٤٥/٣٩٩، ٦٤٦/٣٩٩، ٦٤٧/٣٩٩، ٦٤٨/٣٩٩، ٦٤٩/٣٩٩، ٦٥٠/٣٩٩، ٦٥١/٣٩٩، ٦٥٢/٣٩٩، ٦٥٣/٣٩٩، ٦٥٤/٣٩٩، ٦٥٥/٣٩٩، ٦٥٦/٣٩٩، ٦٥٧/٣٩٩، ٦٥٨/٣٩٩، ٦٥٩/٣٩٩، ٦٦٠/٣٩٩، ٦٦١/٣٩٩، ٦٦٢/٣٩٩، ٦٦٣/٣٩٩، ٦٦٤/٣٩٩، ٦٦٥/٣٩٩، ٦٦٦/٣٩٩، ٦٦٧/٣٩٩، ٦٦٨/٣٩٩، ٦٦٩/٣٩٩، ٦٧٠/٣٩٩، ٦٧١/٣٩٩، ٦٧٢/٣٩٩، ٦٧٣/٣٩٩، ٦٧٤/٣٩٩، ٦٧٥/٣٩٩، ٦٧٦/٣٩٩، ٦٧٧/٣٩٩، ٦٧٨/٣٩٩، ٦٧٩/٣٩٩، ٦٨٠/٣٩٩، ٦٨١/٣٩٩، ٦٨٢/٣٩٩، ٦٨٣/٣٩٩، ٦٨٤/٣٩٩، ٦٨٥/٣٩٩، ٦٨٦/٣٩٩، ٦٨٧/٣٩٩، ٦٨٨/٣٩٩، ٦٨٩/٣٩٩، ٦٩٠/٣٩٩، ٦٩١/٣٩٩، ٦٩٢/٣٩٩، ٦٩٣/٣٩٩، ٦٩٤/٣٩٩، ٦٩٥/٣٩٩، ٦٩٦/٣٩٩، ٦٩٧/٣٩٩، ٦٩٨/٣٩٩، ٦٩٩/٣٩٩، ٧٠٠/٣٩٩، ٧٠١/٣٩٩، ٧٠٢/٣٩٩، ٧٠٣/٣٩٩، ٧٠٤/٣٩٩، ٧٠٥/٣٩٩، ٧٠٦/٣٩٩، ٧٠٧/٣٩٩، ٧٠٨/٣٩٩، ٧٠٩/٣٩٩، ٧١٠/٣٩٩، ٧١١/٣٩٩، ٧١٢/٣٩٩، ٧١٣/٣٩٩، ٧١٤/٣٩٩، ٧١٥/٣٩٩، ٧١٦/٣٩٩، ٧١٧/٣٩٩، ٧١٨/٣٩٩، ٧١٩/٣٩٩، ٧٢٠/٣٩٩، ٧٢١/٣٩٩، ٧٢٢/٣٩٩، ٧٢٣/٣٩٩، ٧٢٤/٣٩٩، ٧٢٥/٣٩٩، ٧٢٦/٣٩٩، ٧٢٧/٣٩٩، ٧٢٨/٣٩٩، ٧٢٩/٣٩٩، ٧٣٠/٣٩٩، ٧٣١/٣٩٩، ٧٣٢/٣٩٩، ٧٣٣/٣٩٩، ٧٣٤/٣٩٩، ٧٣٥/٣٩٩، ٧٣٦/٣٩٩، ٧٣٧/٣٩٩، ٧٣٨/٣٩٩، ٧٣٩/٣٩٩، ٧٤٠/٣٩٩، ٧٤١/٣٩٩، ٧٤٢/٣٩٩، ٧٤٣/٣٩٩، ٧٤٤/٣٩٩، ٧٤٥/٣٩٩، ٧٤٦/٣٩٩، ٧٤٧/٣٩٩، ٧٤٨/٣٩٩، ٧٤٩/٣٩٩، ٧٥٠/٣٩٩، ٧٥١/٣٩٩، ٧٥٢/٣٩٩، ٧٥٣/٣٩٩، ٧٥٤/٣٩٩، ٧٥٥/٣٩٩، ٧٥٦/٣٩٩، ٧٥٧/٣٩٩، ٧٥٨/٣٩٩، ٧٥٩/٣٩٩، ٧٦٠/٣٩٩، ٧٦١/٣٩٩، ٧٦٢/٣٩



وإذا بقي بعض المقادسة على مسافة معينة من الأحكام ومن نظام الحكم

فإنما كان ذلك فقط في بعض رجال الأجيال الأولى ثم اندمج شيخ الأسرة في النظام المملوكي الاندماج الكامل. بل نلجج أحيانا نوعا من المسيرة غير المبررة للحكام في بعض القصص الروية حتى عن كبارهم الأوائل كالذي ذكره من أن أحد الشيوخ، أنكر على أبي عمر أنه يجتنب للماد والماد وهو ظالم «فانسحب من الجامع لأنه ماتل خلفه صلاة»، وقد برّر أبو عمر ذلك بحديث مروى عن النبي (ص) يقول: «ولدت زمن الملك المادل كسرى» (١٤٤). ونسمع غمزا على الخافط جمال الدين عبد الله بن عبد الغني «باليل الى السلاطين والانقطاع الى الملك الصالح» وأصحاب الغمز قطبان من أقطاب الجناية هما الناجح ابن الجنبلي وسبط ابن الجوزي (١٤٥). وقد ظهر في شيخ الأجيال التالية بعض القضاة غير المحمودين من الناس مثل شرف الدين أحمد بن الحسن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٧٧١ والذي «بأشر القضاء مباشرة لم يحدد عليها وكان عنده مداراة وحب للمنصب» «ولافح به صديقه بل شمت به عدوه» (١٤٦) ومثله تقى الدين سليمان ابن حمزة المتوفى سنة ٧١٥ فقد ذكر الذهبي أنه «يجرى في أحكامه ما لا الله به أعلم والآفة من سبطه (ابن بنته) ولولا دخوله القضاء لعد من العلماء العاملين» (١٤٧).

( ١٦ ) تكاثرت أعداد آل قدامة في الصالحية جيلا بعد جيل وأحفاداً بعد أحفاد حتى صاروا مع القرون مجموعة واسعة من الأسر المميّزة شكلت جانباً من الاستقرار الطيبة الدينية - الاجتماعية فيها. وقد برزت منهم أولاً «بيوت» لها ذكر. مثل بيت أولاد الحافظ (عبدالقى) وأولاد العماد وأولاد الشيخ أبى عمر ثم تفروعا فكان منهم العديد من الأسر ويذكر ابن كنان قائمة طويلة بها في المروج السندسية ومنها: بيت عز الدين، وبيت ناصر الدين، وبيت ابن

(١٤٤) ابن رجب — ذيل الطبقات ٥٧/٢.

(١٤٥) ابن رجل - ذيل الطبقات ١٨٥/٢.

٣٦٢/٢ القلائد (١٤٦)

١٤٧) ابن رجب — ذيل الطبقات ٣٦٥/٢.

الأيوبي - المملوكي العام. وإذا لم يحفظ لنا التاريخ أسماء من تولوا المناصب الصغرى منهم فقد حفظ الكثيرين من تولوا الوظائف العليا. فكان منهم قضاة القضاة وشيوخ الإسلام في الشام خاصة وفي مصر ومن هؤلاء، بعد الرعيل الأول أكثر من عشرة شيوخ. منهم شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر محمد (توفي سنة ٦٨٢) وابنه شمس الدين أحمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ٦٨٩) وشرف الدين الحسن بن عبد الله بن أبي عمر (توفي سنة ٦٩٥) وشهاب الدين أحمد بن حسن بن عبد الله بن عبد الغنى (توفي سنة ٧١٠) وتقى الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر (توفي سنة ٧١٥) ثم ابنه عز الدين محمد (توفي سنة ٧٣١) ومحمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد (توفي سنة ٨٢٠) ثم أخوه شرف الدين أحمد بن الحسن (١١٢٧) (توفي سنة ٧٧١) هذا إذا لم نذكر أيضا بعض أربابهم من القضاة الرداية كقاضي القضاة جمال الدين يوسف بن محمد الرداوي (١١٣) (توفي سنة ٧٦٩).

وثمة غير هؤلاء أعداد من تولوا القضاء (على المذهب الجنبلي دوما) والذين تصدروا للفتوى أو جلسوا للدراس في مختلف المدارس في دمشق والقدس والقاهرة وبنا بلس وبعلبك بل وفي بعض البلدان الصغيرة حول دمشق مثل دوما والصميم. وبعضهم تولى نظارة الأوقاف على المساجد وور القرآن والحديث وعلى الزوايا والخوانق والمدارس كما عُيِّنَ الكثيرون خطابة الجوامع وللامامة وعينوا شهودا لدى القضاة ومعيدين وفي التفاهة بالمدارس والجوامع وفي المشاركة (على المدارس) وتفارقة الربعة (أجزاء القرآن في الجامع) وكتابة الفقيه (مراقبة غياب الطلبة) والنظر (على خزانة الكتب) ومشجحة الزوايا... وما إليها.

(١٤٢) أنطرفي تراجم التسمية الأوائل ابن رجب - ذيل الطبقات

بالترتيب أما الأخيران فانظر في ٢/٢٩٤/٣٠٤، ٣/٣٧٢/٣٠٤، ٤/٣٣٤/٣٥٨، ٥/٣٦٤/٤١٥، ٦/٤٥٣/٤١٨

(١٤٣) انظر في تراجم هؤلاء القضاة الباقيين ابن طولون — القلاذد ٣١٩/٢ فما بعد.



في فنون شتى من بينها الطب أيضا فهو شديد الشبه في ذلك مع معاصره جلال الدين السيوطي. وفي فهرس كتبه المخطوط بيده ذكر حوالي ٦٠٠ كتاب ورسالة من تأليفه وكانت مكتبته تقسم أكثر من خمسة آلاف كتاب، لكنه في هذا كله ابن نفسه أكثر مما هو ابن أسرته. ولأخيه أحمد شهاب الدين ذكر محدود ومؤلفات.. ولكن هؤلاء كانوا آخر المنقود..

أما ملايخ ضصف الأسرة فكانت قد بدأت منذ أوائل القرن الثامن ونجد الأمثلة عليها في تراجم بعض رجالها من أمثال أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن راجح سبط الشيخ أبي عمر والمتوفى سنة ٧١٠ والذي ذكروا أنه «حصل له انحراف وساء مزاجه فكان يقف في الطرقات ويشد أشياء مفيدة ويتكلم بجد وهزل وله تلامذة في ذلك الحال ثم يثرب الى عقلة ثم يعود لحالته وقيل: كان سبب ذلك أكل الحشيش...» (١٥١٠).

ويذكرون عن رجل من كبار الأسرة في القرن الثامن (جمال الدين أحمد بن الحسن حفيد أبي عمر المتوفى سنة ٧٧١ ابن شيخ الجبل) أنه سخر القضاة لأهوائه و «لم تحم مباشرة.. وكان عنده مداراة وحسب للمقصب» مع أنه كان قاضي القضاة وشيخ الخطابة (١٥١٢) كما يذكر عن قاض آخر من الأسرة نفسها بين القرنين التاسع والعاشر (ابن التقي المتوفى سنة ٨٢٤) أنه «كان عاريا من المعلم جدا ولسانه ثقيل جدا لا يكاد يفهم كلامه.. وقد تولى قضاء نابلس مدة طويلة ومعلوم القضاء هناك ضعيف جدا. وكان يطلب من النواب الساعطان) وغيرهم.. وجاء الى دمشق وأقام بها.. بجامع (دنكن) وقيل انه كان ينتظر أن يحصل له منه شيء» (١٥٢٣) ووصف القاضي ناصر الدين ابن زريق

- (١٥١) ابن رجب ٤٦٧/٢.  
(١٥٢) القلائد ٣١١/٢ - ٣١٢ وابن رجب ٣١٥/٢.  
(١٥٣) النعمي - الدارس ٧٧/٢.

زريق وبيت القاضي سليمان وبيت ابن قاضي الجبل، وبيت شرف الدين، وبيت جمال الدين وبيت ابن مفلح، وبيت بني عبدالمادى وبيت المكشي وبيت البرد.. وبيت القاضي جمال الدين وبيت ابن الحب وبيت الحافظ ابن عبدالفتي «وغيرها (١٤٧) مكرر.

١٧ انقطع المقادسة عن التائق الواضح منذ أوائل القرن التاسع تقريبا وبينما كثرت أعدادهم أحفاداً بعد أحفاد كانت تراجمهم في الكتب تقصر وعطأؤهم في الدراسة والتأليف يقل وأوقافهم تنضاء ل. ولا كانت المهن والوظائف قد أضحت في تلك المصروف وراثية في الأسر كان المقادسة المتأخرون في معظمهم يرثون المناصب الدينية إراثاً وتقليداً ولا يبالونها نبلا. وكانت تعطى لتأريخهم وليس لمواهبهم وأصبحوا يتزاحون كالأخرين ومع الآخرين على الأوقاف والتدريس والامامة والاعادة والقضاء والفتوى ذلك الزحام الدنيوي العادي الذي كان يقوم به صفار أمراء الجند على الاطلاق في ذلك العصر. وأخذ يحل في تراجمهم لدى المؤلفين لقب قاضي القضاة أو القاضي أو المحدث (١٤٨) بدلا من «العالم الزاهد» «وقطب الوقت» «والمسند الكبير» و «أمير المؤمنين في الحديث». وكان آخر الأسماء البارزة في الأسرة اسمان: واحد من أحفاد عمر بن أبي عمر هو محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن الصالحي الذي عرف بابن زريق (١٤١) وهو من المحدثين الذين اشتغلوا بتاريخ رواة الحديث وقد توفي سنة ١٤٩٧/٩ أما الاسم الآخر والأهم فهو من فرع عبدالمادى في الأسرة وهو المؤرخ الأكثر جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبدالمادى. ويعرف بابن البرد. وكان فيه من ملايخ الجبل الأول البعد عن الدنيا والشدة في الدين وكره المناصب والانصراف للعالم والتأليف (١٥٠) وكان موسوعي الفكر تنوعت مؤلفاته

- (١٤٧) مكرران كان الورد ص ٦١  
(١٤٨) أنظر حلة لقب قاضي المقضاة مثلا لدى ابن رجب ٢٩٤/٢  
(١٤٩) شذرات ٣١٦/٧ السخاوي - القمو الاجمع ج ٧ ص ١٦٩  
(١٥٠) شذرات ٤٢/٨ وانظر مقدمة أسعد طلس كتابه شمار المقاصد.



صالح (١٥٥) (وقد توفي سنة ٦٩٩) كما انتعشت هذه الأجواء في الصالحية نفسها مع ابن عربى الصوفى الكبير الذى نعرف (والتوفى بها سنة ٦٣٨) ومع اليونينى وعروك وابن قوام، وعاشت أيضا وأيضا في قلب المدرسة العمريّة بالذات مع الزهاد الصالحين الذين كانوا يأتون إليها أمثال: الشيخ زحان والشيخ صفى الدين وشمس الدين البينى وشهاب الدين المصرى، وأمين الدين ابن الكركرى (١٥٦) والشيخ خلف أحد الأبدال الذي كان يرى، فيما يروون في عرفة كل سنة وأن لم يسافر إل الحج.

وقد انتشرت في الصالحية ألوان الطرق الصوفية لكن أهمها كانت الطريقة الجبلانية فان قلبها الكبير عبد القادر الجبلانى (التوفى سنة ٥٦١) الملقب بالباز الأشهب كان جبليا. فما كادت تظهر هذه الطريقة سنة ٥٩٧/١٢٠٠ في بغداد حتى نقلها محمد البطائحي وتقى الدين اليونينى والبعليكي الى الصالحية.

واجتذبت الطريقة جاهير الجبلانية تدريجيا ولا سيما حين زال تأثير العلماء المقادسة الأوائل وبقيت منهم أصداء الزهد وحكايا الكرامات حتى اذا كانت أواخر القرن الثامن استطاع أبو بكر بن داود الجبيل (التوفى سنة ٨٠٦) شيخ الطريقة وابنه عبد الرحمن (التوفى سنة ٨٥٦) أن يؤسسا الزاوية الداوودية. وبالرغم من مقاومة شيوخ الجبلانية لبعده الله ومن الفتنة التي وقعت بينهم ففقد استطاع أن يجعل زاويته أعظم زوايا الصالحية وأكثرها نشاطا وغنى وأوقافا وإتساعا مريدين! وقامت بجانب الجبلانية الطريقة الرفاعية بجهادتها الجسدية والجبالية والفنلندرية والشيبانية وغيرها ولكل مواكبها الموسمية ذات الأولوية والطبول ولها الأتباع والريدون وبجلاس الأذكار. وتراجع الفكر العلمى الدينى وتراجعت المدارس في الصالحية لحساب التيار التصوفى المنتشر.. وليس من المصادفة أن تتراجع المدارس بدل أن تريد بينما تقام في القرن التاسع وعطالع المعاصر ١٨ زاوية جديدة لأهل الطرق.

(١٥٥) انظر تراجم الشيخين لدى شذرات الذهب ٤٨٨/٥ و ٤٧٨.

(١٥٦) القلائد ١٨٠/٢ وأظن كذلك ١ ص ١٧٥.

من أواخر القرن التاسع بالفساد والطمول والموائد الرديئة» (١٥٤).

وإذا عرفت الأسرة نوعا من البقعة المتأخرة جدا بظهور الشيخ عبد الغنى النابلسى الصوفى المعروف فيما بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر (١٠٥٠- ١١٤٣ بدمشق) فقد كانت قبل ذلك قد اختفت في جو الغيبات الصوفية وهيمنة رجال الطرق التي غلبت على الفكر الدينى والناس منذ القرن التاسع ثم سيطرت في العهد الشمانى بعده...

١٨) توافقت جهود الجماعة المقدسية مع صعود وسيطرة التيار التصوفى على الأجواء الروحانية والاقبال على الفرق الصوفية في العالم الاسلامى السنى كله. يستوى في ذلك الطبقات الشعبية وشيوخ العلم ورجال الحكم. بينما سرت القناعة بأن العلم منته رباية «لأهل الله»، وحلت «المعارف الدنيوية» التي توهم الناس وجودها لدى أقطاب التصوف، ومعظمهم لم يكن له من العلم الا الحظ الضئيل، محل المعرفة العميقة بالدين والدراسة الحقيقية للعلم. وآمن الناس بقدسية «المجازيب» والدرأ ويش وقد رآتهم الحارقة لأنهم أولياء بالخلفاء والتكويرين الرباني. وبينما كان ذلك يتم، كان تحول كامل يتم في مسيرة العلم بالصالحية مدينة العلم.

والمواقع أن الصالحية لم تكن، بالطبع خارج هذه الأجواء لأنها جزء منها ومن بناها الاجتماعية - الفكرية ولعلنا نستطيع القول أيضا إن هذه الأجواء الزهدية التصوفية كانت قد نشأت، مع نشأة البلد الجديد. ومع الحركة المقدسية نفسها. ولا تقصد أنها نشأت مع أبى عمر وأخيه وصهره فقط ولكنها نشأت أيضا مع الشيوخ «الربانيين» الذين ظهروا وبهذا حول الصالحية أيضا: من أمثال الشيخ جندل المعجمى في قرية منين (خلف جبل الصالحية وقد توفي سنة ٦٧٥) والشيخ رسلان التركمانى الجعبرى الدمشقى الذي سكن قرب مسجد أبى

(١٥٤) القلائد ١٧٨/١ و ١٧٩.



الكيلاني والرافعي والبدوي في المشرق وأما لهم في المغرب فإن ما يهمنا هنا هو أن الناس بالنسبة للصالحية آمنوا - وحلهم الشيخ أيضا على الإيمان بأنفسا مقرر بعض هؤلاء الأقطاب الذين لا تخلو منهم الأرض. وقد ذكر ابن عبد الهادي، أواخر القرن التاسع، قصة مبررة عن هذه الأجواء هي قصة ذلك الرجل الذي جاء من بلاد بعلبك مؤثرا أنه لم يبق في الدنيا أحد من الصالحين إلا في الصالحية وفي مدرسة أبي عمر بالذات ولا لس الشرور فيها نفس فلم يطعم بها رضيعا وبينما هو في الجامع الأموي ذات يوم ناداه شخص لا يعرفه باسمه واسم أبيه وأهله وأقبل بهزه من كتفه قائلا: لا يا مسكين! لو دخلت من الصالحين لحنسف بها. عندك منهم في الصالحية ستة وفي المدرسة ثلاثة وفي ضواحي الصالحية ثلاثة» وأغص على الرجل فلما أفاق لم يجد لمن كلمه هذا الكلام أثرًا.. (١٥٦).

وما يرويه ابن طولون (وهو صالحى وقد توفي سنة ٩٥٣) قوله وكأنه يروى احدى الحقائق: «دولا قصدها الدوادار أقيردى (في فتنه قامت بها ضد السلطان) بلغنا أنه وجاعته رأوا خيلا من برزة الى الربرة قد انتشرت فخاف ورجع عن ذلك. فسألنا هل عندكم هذه الخيول كلها في الصالحية؟ ولا والله ما نعلم ولا فرسا واحدة صعدت ذلك اليوم وإنما ظهر رجال مشاة. وبلغنا عن بعض جماعة أنه قال له: ما نشير عليك بالمسير اليها فانها محمية بالصالحين فرجع عن ذلك».. (١٥٧).

وهكذا بعد أن غاب أمثال القادسة الأوائل عن الصالحية جاء الاعتقاد العام ليحل محلهم الأقطاب غير الظاهرين ويشمل الأمل بأنهم موجودون.. ولكن تحت أستار الله! وأن صالحية «الصالحين» ماتزال مقرر الصالحين!

## ٦ - مدارس آل قدامة ورجال الأسرة:

قام الانجاز الذي قدمه القادسة في الصالحية على المدرستين العمريتين

(١٥٦) القلائد ٢/ ١٨٠ - ١٨١.

(١٥٧) انظر القلائد ٢/ ٣٨٠.

وندخر في خلفيتنا الفكرية المؤشرات العالية وتمقيداتها الاقتصادية

السياسية التي عزلت منطقة الشرق العربي منذ مطلع القرن الماضي/ ١٥م، لنضيف اليها أنه مع شيخ الغيبة الصوفية من اليابان بالاولياء والكرامات الربانية والخوارق لأقطاب التصوف وسيطرة الطرق الصوفية بالمشرات على الممارسات الدينية في المشرق الاسلامي والمغرب على السواء، وفي المناطق الجديدة الاسلام من افريقية والمند وآسيا، فان الصالحية بسبب من تراثها القديم في المقدسات ومن سمعة رجالها القادسة وغيرهم ومن الكرامات الدينية التي نالها دمشق خلال الحروب الصليبية ومن بعدها، أخذت حزمة خاصة وصارت لها حتى في أخيلة المتدينين البعيدين عنها هالة من البركة والتقدير شاع معه الاعتقاد أنه «ان بقي في الدنيا أحد من الصالحين فهو بها». وقد نقلت اليها من حلب مثلا سنة ٦٧٠ رفات ابن قوام التوفي هناك سنة ٦٥٨ (١٥٧) وأقيمت له زاوية فيها وصار له المريدون والأتباع وبينما تكاثرت في الصالحية أمثاله من شيخ الزهد والطرق. و «الدروشة» وتكاثرت الروايات والأربطة مهم وتحولت اليهم المبسات والأوقاف كان الاعتقاد يتزايد بالتقابل، ومع فقد الشخصيات الدينية الكبرى، بأن «الأقطاب» أقطاب الأرض، الابدال المتصلين بالله، موجودون فيها ولكنهم يحتفظون بالسر الالهي لأنفسهم فهم في الظاهر من أصف خلق الله وفي الباطن حملة الأسرار الربانية والمكشوفون..

وكان هذا في الواقع جزءا من التصورات الغيبية التي سيطرت على الأجزاء الدينية مع تطاول العصر المملوكي وتفاقم المآسى الطبقية وشرور النظام المسيطرة. كانت البنى الاقتصادية الاجتماعية، ومايزل بالناس من البلوى والجوارح الاقتصادية، والصحية، والسياسية هي التي تلمس مثل هذا التفسير لغياب القسم القيادية وانتشار الظلم والفساد والندكات في الناس بغية اقامة التوازن الروحي والمادى في حياتهم العامة. وإذا كنا نجد الأمثلة على ذلك في بروز أسماء

(١٥٧) شذرات ٥/ ٢٩٦.



عزم المقادسة على عدم العودة وعلى الاستمرار حيث يقيمون من الجبل. ثم زاد الناس في المدرسة دون شك خلال القرن السابع زيادات لم تسجل. ولعل أهم زيادة كانت بعد ذلك في أواسط القرن الثامن على يد جمال الدين المرداوى (٧٠٠ — ٧٦٩) فقد بنى بناء كاملا شرق المدرسة وأضاف إليها رغم معارضة أولاد الشيخ ثم زادها أبو الفرج عبد الرحمن الفرائضي أحد أحفاد أبي عمر وزادها الأمير يلبغا الجيوى قبل أواسط القرن الثامن، ثم استمرت الزيادة فيها في القرن الثالث فقد بنى الأمير محمد بن منبج، أحد أمراء دمشق توسعة لها في شرقها ثم جاء شهاب الدين أحمد بن عبد الرزاق ابن زريق كاتب الديوان عنده (١٦٠٠) فوسّعها («بدرسة جديدة») كاملة حوالي سنة ٨٤٠ «جاءت في غاية الحسن» حتى أصبحت العمرية في أواسط القرن التاسع مجمعا مدرسيا يحوى ٣٦٠ خلية (غرفة) عدا المسجد والمساحات والأرواب والممرات والمصنع. وكانت الاضافة الأخيرة ساحة واسعة فيها بئر ماء و يدور بها خلاوى على ثلاث طبقات متصلة بالبناء القديم الذى كانت تقوم بعض خلاويه فوق سقف النهر. وكان فيه كذلك طبقات ثلاث من الغرف وصحن واسع وإيوان. وكان الحجابة يفخرون بأن لهم مدرسة طول البركة فيها مسيرة يوم لأن نهر يزيد الذى يمر بها طوله كذلك. (١٦١٠) وكان لكل جناح من الخلاوى فيها اسمه فهذا حارة المرادة وذلك حارة البقاعين (من أهل البقاع) وثالث حارة العميان!!

ولاشك أن التوسع المطرد في البناء يمكن: تزاييد الطلاب المستمر فيها كما يعبر عن استمرار دورها الريادى وتضاعفه حتى أواسط القرن التاسع على الأقل. ولا يعنى هذا أنها كانت تقوم بدور علمى خلاق بقدر ما يعنى أنها كرت النظام الفكرى التقليدى الذى وضعه مؤسوها الأ ولون .

وقد توقف التزايد البيئاني في المدرسة منذ أواسط القرن التاسع. و يبدو

(١٦٠) انظر القلائد ج ١ ص ١٦٩ حتى ص ١٧١ وانظر الدارس ١٠٥/٢ وص ١٠٦.

(١٦١) نجد الوصف التفصيلي للمدرسة بشيائها وأروقعتها والخلاوى والخزان بالتفصيل لدى القلائد ج ١ ص ١٨١ — ١٨٣.

والضيقانية وعلى جهود مجموعة من العلماء. وبرغم ظهور ١٧ مدرسة في هذا البلد حتى أواخر أيام الأسرة القدامية أوائل القرن العاشر منها ست جنهيات فقد كانت هاتان المدرستان الحنبلتان في الطليعة سمة وأوقافا وثرا. وبرغم توافد الشيخ من مختلف المذاهب إليها فقد كان المقادسة الحجابة بعمرة عامة هم الأكثر عددا والأعمق صدق فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ونصف القرن .

### أولا — المدرسة العمرية :

هى المؤسسة التي قامت عليها نهضة المذهب الحنبلى في ما بين القرنين السابع والعاشر ١٣ — ١٦ م وهى المدرسة الأم التي جمعت ووجهت جهود الشيخ المقادسة والحجابة في تلك الفترة كما أنها البناء النواة الذي قامت من حوله بلدة الصالحية. وكانت تسمى بالشيخية وبالعمرية نسبة الى الشيخ أبى عمر.

وصف ابن عبد الهادى أواخر القرن التاسع هذه المدرسة بأنها «عظيمة لم يكن في بلاد الاسلام أعظم منها» (١٥٨) وربما كان في هذا الوصف بعض المبالغة ولكنه على أى حال يكشف عظمة صورتها لدى الناس في فترة نشاطها وازدهارها. وقوام هذه «العظمة» أربعة أمور: سمة البناء وغنى الأوقاف وكثرة الشيخ والطلاب وضخامة المكتبة.

أ) البناء بدأ ببناء المدرسة، على يد أبى عمر على ضفتى نهر يزيد بأن: «عقد الشيخ النهر ثم بنى المسجد وبنى عشرة خلاوى (غرف) للقرءاء عقداً على هيئة البلاد (نقط بناء المقيود في فلسطين كالأقبية) ووضع تحتها المصنع للماء» (١٥٩). ولا تذكر المصادر متى كان هذا البناء ولعله تم بعد تحرير فلسطين سنة ٥٨٣ وبعد

(١٥٨) الدارس ١١١/٢ .  
(١٥٩) القلائد ١٦٩/٢ .



من لم يحضر».

— ولما وقف للأطعمة اليومية وهي أطعمة رتبية ومنها الجريشة في الشتاء وقد تنصوت في أيام الشيخ عبدالرحمن بن داود (القرن التاسع) ما بين قمحية وحب رمان ولبنية وغير ذلك ثم اقتصر على القمحية والميس لينة لجمعة ويطبخ لها في رمضان بلحم كل ليلة. ويطبخ لها ليلة العيد ثلاث أطعمة هريسة ورز حلو وطعام حامض. ولما أضحية في العيد الكبير تعطى لكل نازل بها. ولما وقف حلوى في المواسم (رجب وشعبان) وقف زبيب وقصامة كل ليلة جمعة. وحلويات أخرى في الليالي الفضيلة من رمضان. ووقف لتوزيع الزبيب سنويا على النزلاء.

— ولما وقف على قصمان كل سنة لكل نازل (وكان مستمرا حتى أواسط القرن التاسع).

— ولما أوقاف سراويلات، وبشوت. وفراء لكل نازل سنويا.

— ولما حصر لبورت المجاورين كل سنة وصابون.

— ولما وقف أطباق غسيل للقراء ودموت لطبخهم.

— ولما وقف أباريق للوضوء وسخانة يسخن فيها الماء في سائر أيام الشتاء والبرد للاغتسال. ووقف من الزيت للاضائة.

— ولما وقف على ختان من لم يكن مخونا في كل سنة من الفقراء والأيتام وهو عام في سائر فقراء الصالحية... (١٦٥)

يضاف الى هذا كله ما يدفع للشيخ من الأوقاف المخصصة على دروسهم وقراءتهم فهناك وقوف لمختلف أنواع القراءات والدروس والأعمال المتعلقة

بإمامة المدرسة والنظر في شؤونها..

ويظهر مقدار ماتدر هذه الوقوف من كثرة الشيخ المتفيعين بها وتراجمهم

(١٦٥) انظر القلائد ١٧٨/١ — ١٧٩ والمدارس ١١١/١ — ١١٢.

أنها بدأت في التراجع بعد ذلك ولا سيما بعد الاحتلال المشائي للبلاد سنة ٩٢٢ ودعاه للمذهب الحنفى. وقد ذكر ابن طولون الذي عاش تلك الفترة انه (قد تعطل منها في أيامنا خلاوى كثيرة) (١١٢) وكان ذلك ايدانا بالتقصير والافتراض وما تزال أطلال هذه المدرسة قائمة وتحتفظ باسمها في الصالحية حتى اليوم.

ب ( أوقاف المدرسة : كانت المدرسة نفسها اول وقف في هذه المؤسسة فقد وقفها صاحبها أبو عمر على تدريس القرآن والفق للحنابلة. وقد بدأت الأوقاف تجبس عليها في حياته ثم لم يزل الناس يوقعون عليها من زمنه الى آخر عهدنا و«قل سنة من السنين قضى الا و يصير اليها فيها وقف. فوقها لا يمكن حصره كما يقول ابن عبدالمهدي (١١٢) حتى صار من كل أنواع البرطاء.. من جلته مثلا العشر من البقاع والمزب على داريا من القمح ستون غرارة ومن الدراهم خمسة آلاف للمغنم في شهر رمضان» قرر ذلك «السلطان الأشرف» (سيف الدين برسباى ٨٢٥ — ٨٤١) ومنه دكاكين تحت قلعة دمشق «ونصف حام الشيلة والجنينة» والبيت فوقه... الخ ونحن نجعل باقى الموارد الأخرى لأن المشرفين على الوقوف كان من عاداتهم اخفاء وثائقها أملا في اندثارها ذات يوم أو خوف الطمع فيها ولكنها نستطيع أن نعرف ضخامة هذه الموارد وقوتها الوقفية الطويلة من النفقات التي كانت تترتب على تلك الأوقاف والتي استمر بعضها قرنين أو أكثر أو أقل ومن المعروف أن لكل وقف مورده الخاص فكان للمدرسة العمرية:

— وقف للمخيز يفرق فيها كل يوم ألف ريف أو نحوه على النزلاء وليس ثم من المدارس ما يفرق فيها من الخبز أكثر منها وهو مستمر طول السنة وفيها الرغيف المادى (الطلمة) والرغيف الكبير (طلمة ونصف) يبدأ النازل الجديد بطلمة ثم برغيف كبير ثم بطلمتين وللشيخ ثلاثة! ولما أمين يفرق الخبز وكانت غنية على

(١١٢) القلائد ١٨٣/١.

(١١٣) المدارس ١١١/٢.

(١١٤) القلائد ١٧٨/١ والمدارس ١١١/٢.



الشرقية وآخر في الحزاة الغربية (وفي الحزائين مصاحف كثيرة موقوفة من أهل البس) وشيخ المدرسة يكون في الحراب. وعن يمينه وشماله شيخان آخران.. (وقد حفظ القرآن بها أم لا يحصون (١١٦)) ومن مشايخ الاقراء المشهورين الشيخ خلف الذي كان يعد من الأبدال ويقال انه كان يرى كل سنة بعرفة!

— وهناك قراءة السبع كل يوم بالايوان القبل يجمع فيه خلافتي يحنون القرآن فيه في كل أسبوع مرة، وهناك سبع بعد المغرب. وأسباع أخرى بدأت ثم انقطعت. — وهناك قراءة الشائين في المقصورة ولما شيخ مرتب يقرأ عليه كل من يقرأ فيها ولا تترك القراءة بها طول الليل..

— وكان بين بابي المدرسة شيخ يقرء القرآن والعلم على سائر المذاهب وعن يمينه وشماله مشايخ يساعدونه.

— وثمة دروس «منسوبة» (أى أنها باسم من بدأ بها أو وقفها عليها) ومنها درس ابن الحبال ودرس ابن قاضي الجبل ودرس ابن البيطار ودرس الأمير بكتمر (المتوفى سنة ٧٢٤) ودرس حلقة يوم الثلاثاء التي كانت محصورة في عشرة أو عشرين طالبا يطلون الفقه الحنبلي و يبالغون أوقاف الدرس على ذلك (وهو ريع نصف حام الشبلية والبيت فوقه).

— وهناك البرنامج الأسبوعي للدروس في الفقه الحنبلي: ولكل يوم من أيام الأسبوع شيخه المختص (١٧٠).

يمكن أن نقدر عدد النازلين في المدرسة، حسب معدل توزيع الجيز بالايقل عن ٧٥٠ أو نحو ذلك. وحتى في أواخر عهدا، (أيام ابن طولون في أوائل العهد العثماني) كان عدد النازلين لا يقل عن ٥٠٠ بين طالب وشيخ مقيم وصوفي زاهد (١٧١). وكان توزيع جلوس الشيخ في المدرسة للتدريس يتبع مقام الشيخ

(١٦٩) القلائد ١/١٧٥ — ١٧٦.

(١٧٠) انظر في ذلك القلائد ١/١٧٣.

(١٧١) القلائد ١/١٧٧ يقول ابن طولون: «ولا يزال مثزل فيها الخمسةائة ونحو ذلك».

في المرحلة الثانية خاصة من حياة المدرسة عليها.. وهذه الوقوف كانت تأتي خاصة من النواب والأمراء وكبار المستفيدين ومن التجار والملاكين والشيخ المرسرين كما تأتي أحيانا من الأفراد الماديين. وإذا كان معظمهم من الحباية فان بعضهم — وبخاصة من الأمراء — كانوا يوقفون على المدرسة تدبنا واعجابا أو لأرب سياسية. على أن تدفق الأوقاف على المدرسة توقف منذ أواسط القرن التاسع على ما يظهر وقد تراقف معه وتلاه اضمحلال الأوقاف القديمة، تدريجيا وزوالها وكثيرا ما كان يبيعها أو يتاعها الشرفون عليها (ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن زريق المتوفى سنة ٨٠٣) (مثلا باع بعض أوقافها) (١٦٦). وقد تدخل الحكام في النهاية في شؤون المدرسة بسبب اختلاف تطلرها وشيوخها وفي مطالع العهد العثماني بعد سنة ١٩٢٢ اشتمكي مستحقو المدرسة لثائب الشام جانردى النغزالي فأقام عليها «شرباره»... وقد اضمحل حالها في أيامه وصار لا يجزها الا في كل شهر مرتين أو ثلاثا وقد تهدم غالب خلاها وبها والباقي لا يسكنها الا الأكارون من تكية السلطان سليم بن عثمان (يقصد الفقراء والمستكفين) (١٦٧).

### ج) الدراسة والشيخ:

كانت الدراسة في المعربة تشمل القرآن والفتة الحنبلي خاصة ويتابعها في المدرسة طلاب العلم من جميع مراحل الحياة:

— فالأطفال، والكهوفون لهم «شيخ التلقين» يلقنهم القرآن وعمل في ذلك محمد بن أحمد بن مرجان العالم القدوة (توفى سنة ٧٧٤) (١٦٨).

— والكبار يعملون قراءة القرآن على عشرة من مشايخ الاقراء. واحد في الحزاة

(١٦٦) القلائد ١/١٧٨.

(١٦٧) القلائد ١/١٨١ وتكية السلطان سليم اقيمت بأمره تجاه جامع الشيخ محي الدين ابن عربي في

الصالحية وبتأثير قائمة الى اليوم و يطبخ فيها «شربة» أسبوعية للفقراء.

(١٦٨) القلائد ١/١٧٧.



لكنها كانت إذ ذاك قد بدأت مرحلة الأول.. كانت لها حزمة مستمدة من تاريخها وشيوخها وجمالة العلماء فيها وجدية طلاب العلم ولكن ذلك الجو القديم انتهى الى الانحطاط.. وأحد نظارها في مطالع القرن التاسع (ناصر الدين محمد ابن زريق) «نقل عنه في حقها - على حد قول ابن عبد الهادي أحد رجال الأسرة القدامية - كلمات رديئة وأمر كفرة منها: قصدى اخراجها واضرب على بابها دفا ومسمارا. وكان يقول للأثرak (الحكام والأمراء المماليك) أنا عندى خسمائة حرامى.. الى غير ذلك حتى كرهها الى الأثرak وغيرهم.. وتساعد هو وغيره حتى كبت وضرب أهلها بعد أن كانوا بالمروءة بالمرءة و يتهنون عن المنكر على كل أحد وكانت لهم حزمة قائمة.. «فكسرت حرمتها وفتح أمرها وكان عضده في ذلك قاضى الجبالة النجيم ابن مفلح» (١٧٦)...

#### د) مكتبة المدرسة :

يبدو من خلال الأخبار أنها كانت مكتبة ضخمة وقد نفت بها كان يهدى اليها و يوقف فيها من مختلف الواقفين والكتب و يبدو أنها كانت موزعة على قاعتين الخزانة الشرقية والخزانة الغربية وفي هاتين الخزانتين عدا الكتب مصاحف كثيرة. يضاف الى هذا «عدة خزائن للكتب الموقوفة من عدة أناس»:

يقول ابن طولون:

— «أعظمها كتب السيد الحسينى «ولله شمس الدين محمد بن على بن الحسن بن حمزة الحسينى (٧١٥ - ٧٦٥) صاحب الذيل على كتاب العبر للذهبي وقد جمع أشياء مهمة في الحديث وكتب واختصر بخطه الكثير من

الكتب (١٧٧).

(١٧٦) القلائد ١٨٠/١.

(١٧٧) انظر ترجمته لدى ابن كثير - البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ولدى ابن حجر وفي ضوء الملحق ١١/٤ وابن طولون الذى ذكر الخزانة لم يذكر اسمه وقد رجحنا أن يكون هو شمس الدين. وثمة احتمال آخر هو أن يكون المقصود هو أبا عبيد الله محمد بن الحسن بن عبد الله

ومكانته فنتهم من «يتصدرون» ومنهم من يجلس الى يمينه أو شماله أو في الزاوية الشرقية أو الغربية. وللمدرسة إمام له مقامه الدينى الكبير ولها ناظر (مدير) يتولى شؤونها (١٧٢) كما كان لها من الحرمه الشيء الكثير نتيجة لكل ذلك «بحيث انه اذا دخلها غريم لا يدخل أحد من ذوى الشوكة يأخذه ولو كان النائب (نائب السلطنة) وإذا جاء في نهرها قليل غسل ودفن من غير مشاورة...» (١٧٣).

وقد اضطرب أمر المدرسة في النصف الأول من القرن التاسع باختلاف شيوخ الجبالة عليها وسيطرة الطريقة الكيلانية على جواهرهم فتسلم ادارة المدرسة الشيخ عبد الرحمن بن داود شيخ الطريقة ونظمها التنظيم الطيب ولكنه أدخل عليها تدريس المذاهب الأربعة، بعد أن كان شيخ المدرسة (من نسل أبى عمس) يثرون ان سمعوا أحدا يهم بجازعتهم وحدانية المذهب فيها. «وشق ذلك على الجماعة.. ووقع بسبب ذلك أمور وفن «حاول الشهاب ابن عبد الرزاق بن زريق حسمها باستصدار مراسيم سلاطنية من مصر باخراج أصحاب المذاهب الأخرى منها «فلما كانت المراسيم في الطريق مات فاستمر الأمر على ذلك..» (١٧٤).

وهكذا رتب للمشافعية درس في العمريه، عند البئر، يتناول صاحبه تسعين درهما في الشهر ثم رتب للحنفية درس في الايوان القبلى، في اليومين المذكورين (١٧٥). وكان ذلك سنة ٨٤٧.

وبذلك تحولت العمريه في أواسط القرن التاسع مدرسة لجميع المذاهب

(١٧٢) انظر في ذلك القلائد ١٧٧/١ و ١٧٩.

(١٧٣) القلائد وانظر كذلك ص ١٨٠ «أنا عندى خسمائة حرامى».

(١٧٤) انظر في المصدر نفسه ١٧٤/١ ويعلق عبد الهادي الحلبى على ذلك بقوله «كان أكثر أصحابنا (الحسبية) يرون ذلك بلية ولما أنا لا يستوفى ذلك وأراه خيرا فإن فضل الشيخ (أبى عمس) كان قاصرا على الجبالة فعدى اليهم والى غيرهم...».

(١٧٥) انظر المصدر السابق نفسه ١٧٤/١ - ١٧٥.



## ثانياً : المدرسة الضيائية (دار الحديث الضيائية المحمدية)

وتسمى كذلك دار السنة . بناها وأوقفها ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد السمدى المقدسى شرقى باب جامع الجبابلة (المظفرى) ولعل البناء كان قبل سنة ٦٢٠ بعد استقرار صاحبها في الصالحية وانتهاء اسفاره المديدة في طلب العلم وقد ذكرناه «بناها للمحدثين والفرباء الواردين مع الفقر والقلّة وكان يبنى منها جانباً ويعبر الى أن يجمع معه ما يبنى به . و يعمل فيها بنفسه . ولم يقبل من أحد شيئاً تورعاً...» كما ذكروا أيضاً أنه قد «أعانه عليها بعض أهل الخبز...» (١٨٢) .

وكانت المدرسة تحوى مسجداً وخلوة (قاعة) للكتب وصحناً فيه بئر ماء ومن حوله خلاوى سفلية وعلوية وكان لها بابان أحدهما قديم هو القبلى (الجنوبى) والآخر جديد (الغربى) أحدث في القرن الثامن، أحدثه ابن قاضى الجبل (المتوفى سنة ٧٧١هـ) (١٨٣) .

ولم تكن المدرسة واسعة كالعمرية لأنها كانت مقصورة على دراسة الحديث النبوى والفقه ويدررها «شيخ دار الحديث»، الذى يقوم بالتدريس فيها ومعه مدرس للفقه وبعض المحدثين . ولكن أوقافها كانت على ما يظهر أوقافاً حسنة دارة: فهي تضم بين مناضمه: غالب دكاكين السوق النوفانى (في الصالحية) وحوانيت وجنبته في النيرب وأرضاً بسمياً (أحدى قرى النوفة) و يؤخذ لأهلها ثلث قصب ضياع وقف دار الحديث الأشرفية، (وهى دار أخرى للحديث بالصلحية على حافة يزيد بناها الملك الأشرف مظفر الدين المتوفى سنة ٦٣٥هـ) وهى الدبر والدوير والمعمورة والتليل والشبرقية...» (١٨٤) (من قرى النوفة التى درست)

ولعل أهم مافى هذه المدرسة مكتبتها التى كانت تعرف بخلوة الكتب

(١٨١) أنظر القلائد ٨١/١ لم تذكر المصادر تاريخ البناء والدليل الوحيد الذى استرشدنا به هو أن الموقع عبد الله بن أحمد بن قدامة المتوفى سنة ٦٢٠ وقف كنيه على هذه المدرسة .

(١٨٢) ابن رجب — ٢٣٨/٢ .

(١٨٣) القلائد ٨٣/١ وما تزال بقية هذه المدرسة موجودة وهى الآن دار ندعى بالصلحية وتستعمل لصلحة الجامع المظفرى ولم يبق من بنائها الا اول سوى قوس ايوانها القديم .

(١٨٤) أنظر الدارس ٩٩/٢ والقلائد ٨٣/١ .

— «ومنها كتب الشيخ قوام الدين الحنفى» (وهو قوام الدين بن قاسم الملاى الحنفى) .

— «ومنها كتب الشمس البانىسى» (محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٢١هـ) (١٧٨) .

— «ومنها كتب المتحدّث جال الدين يوسف بن عبدالمادى (المعروف بابن البرد المؤرخ المعروف ٨٤٠ — ٩٠٩م) وهى تزيد على خمسة آلاف كتاب ورساله فهرسها بنفسه في كتاب وقفها المحفوظ بخطه في المكتبة الظاهرية بدمشق (١٧٦) و يبدو من استعراض الفهرس أنها كانت تحوى طائفة نفيسة من الكتب جيدة النسخ وما كتب بخطوط العلماء المشهورين كالدهى وابن قيم الجوزية وابن الجوزى وابن رجب والجراعى وغيرهم .

— ومنها كتب شهاب الدين بن منصور .

— «ومنها كتب صاحبنا البدرى (صاحب ديوان الجيش «ولمعه ابن أبى بكر بن عبد الله ابن البدرى الدمشقى المؤرخ المتوفى سنة ٨٩٤) ويضيف ابن طولون في النهاية: «وفي هذه الكتب مصحف بخط الامام على بن أبى طالب رضى الله عنه» (١٨٠) وقد أصبحت هذه المكتبة بنكيتين الأولى أيام قازان آخر القرن السابع والثانية في كارة تيمور أوائل القرن التاسع ونهبت كتبها وبيعت ولكنها استطاعت بعد كل من النكيتين أن تستعيد تكميلها لأنها ما لبثت أن اضمحلت مع اضمحلال المدرسة وتوزعت الأيدى كتبها التى بقى بعض منها محفوظاً فيها حتى اجتمع في مطالع هذا القرن بين كنوز المكتبة الظاهرية بدمشق .

— الحسينى الواسطى (٧١٧ — ٧٧٦) وقد اشتغل في المدرسة الشامية الجوزية والبرانية وفي الصامرية وكتب الكندي نسخاً وتصنيفاً بخطه الحسن . (ترجمته في الثغرات ٦/ ٢٤٤ ولدى ابن حجر في الدرج ٣/ ٤٢١ — ٤٢١ — وقد حسب صاحب الثغرات المتحفظين شخصاً واحداً فكرر ترجمته الواسطى في سنة ٧٦٥هـ (ج ٦ ص ٢٠٥ — ٢٠٦) بدلا من ابن حوة .

(١٧٨) له ترجمة صغيرة في مختصر تنبيه الطالب للملوك .

(١٧٩) ترجمه في الظاهرية (١٩) أدب وهو في ١٥٠ صفحة (١٢٢٠) مكتوب بخط دقيق متقارب السطور ويكوى ٦٠٠ كتاب من تأليف ابن عبد المادى .

(١٨٠) أنظر القلائد ٨٣/١ .



منها شيء كثير» يقول ابن كثير سنة ٦٩٩ «وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التشاور وصاحب سيس (الأرمي) في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأثرية.. وجاء أكثر الناس إلى رباط الحنابلة - فاحتاطت به النار.. ولا نكب قتلوا.. ونهبوا.. ونهبت كتب كثيرة من الرباط الناصري (والدرسة) الضيائية وخزانة ابن البرزق (وهو أبو بكر منصور بن معنوق الشاجر البغدادي المتوفى سنة ٦٩٤ وقد وقف كتبه على ترثه بجبل الصالحية). وكانت تساع وهي مكتوب عليها الوقفية» (١٨٧) «ثم تأملت (مكتبة المدرسة الضيائية) ورجعت إلى عهدنا الأول فأصابها في نوبة تيمور سنة ٨٠٣ نكبة أخرى عاثلة ضاعت أصدؤها في النكبة الأعظم التي شملت دمشق وجامعها الأموي ومع ذلك عادت المكتبة مرة أخرى لسهولة وقف الكتب ولكنها لم تعد لجدها الأول على ما يظهر بل جاء يوم تبددت فيه ثروتها من الكتب دون نكبة والمؤرخ ابن عبد الهادي (المتوفى سنة ٩٠٩) يعطينا تقريرا عن بدء انهيارها في عهده قائلا:

«...وكان بهذه المدرسة كتب الدنيا والأجزاء الجديدة (وكانت هذه الأجزاء من الأكثرية بحيث سعى ابن طولون مرة مع الشيخ موسى الكنايني المشرف على خلوة الكتب في استعادة نحو ألفي جزء منها كانت على ما يظهر قد عدت عليها بعض العوادي) ويضيف ابن عبد الهادي قوله: «حتى يقال أنه كان فيها خط للأئمة الأربعة وحتى يقال أنه كان فيها التوراة والإنجيل. وكانت مضبوطة أيام خزنتها بني المص (١٨٨) وبدد هم صارت إلى القاضي ناصر الدين بن زريق الذي قال عنه أبو الفضل ابن حجر أنه ما رأى في بلاد الشام من يستحق اسم الحافظ غيره. وكان في أيام القاضي علاء الدين بن مغل (١٨٩) فاحتاج

(١٨٧) ابن كثير ٨/١٤  
(١٨٨) بنو المص هم أولاد عبد الله بن أحمد السدي ونسب منهم شمس الدين أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بالحب الصامت (٧١٢ - ٧٨٩) وشمس الدين محمد بن محمد السدي (٧٥٥ - ٨٢٨) ونسبهم في الدرر والشارات.  
(١٨٩) هو القاضي أبو الحسن علي بن محمود بن أبي بكر بن مغلي الحلبي الحافظ (ولد بحماة أو بسليمة سنة ٧٧١ وتوفي سنة ٨٢٨ (شارات ١٨٥/٧).

والنواة الأولى للمكتبة صاحبها نفسه فقد أوقفها على الدار وكان مولما بالمكتبة «حصل كثيرا من المسانيد والأجزاء وحصل أصولاً نفيسة فتح الله بها عليه هبة وشراء ونسخا.. وأكب على التصنيف والنسخ» «وكتب بخطه الكثير من الكتب الكبار وغيرها. ويقال أنه كتب عن أزيد من خمسمائة شيخ وحصل أصولا كثيرة» وقد وقف كل ذلك «بخزانة المدرسة الضيائية على اصحابهم الحنابلة» (١٨٥).

ثم توالى أوقاف الكتب على المدرسة فصار فيها كما يقول الصفدي:

— «من وقف الشيخ موفق الدين» (عبد الله بن أحمد القدامي المتوفى سنة ٦٢٠)  
— «والبهاء عبد الرحمن» (هو أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد السدي ابن عم الضياء صاحب المدرسة ٥٥٥ - ٦٣٤).

— الحافظ عبد العزيز (ولعله عبد العزيز بن عبد الملك بن عثمان القدسي المتوفى سنة ٦٣٤).

— و«ابن الحاسب» (ولعله عثمان بن عمر بن أبي بكر الاسناني ٥٧٠ - ٦٤٦) أو العزيز بن محمد بن منصور الاعميني المحدث المتوفى سنة ٦٣٠).

— و«ابن سلام» (ولعله الزكي المحدث محمد بن الحسن بن سالم الدمشقي المتوفى سنة ٦٣٠ وقد كتب الكثير وتوفى شابا فإطاعة والشرين أو الحسين بن اسحق المتوفى سنة ٦١٧).

— و«ابن هامل» (وهو شمس الدين محمد بن عبد المنعم الحراني ٦٠٣ - ٦٧١).

— و«الشيخ علي الموصلي» (ولعله عماد الدين علي بن يعقوب الموصلي المتوفى سنة ٦٨٢).

— و«الحافظ عبد الغني» (٨٨٦) (وهو تقي الدين ابن عبد الواحد المتوفى سنة ٦٠٠).  
وقد نهبت المكتبة في نكبة الصالحية، نوبة قازان (سنة ٦٩٩) ورأح

(١٨٥) انظر الصفدي - الوافي بالوفيات - ج ٤ ص ٦٥ - ٦٦ وابن رجب ٢٣٧/٢ وابن كثير البداية والنهاية ج ١٦٩/١٣ - ١٧٠.  
(١٨٦) الخلاصة ٨٢/١ ومن المحتمل أن يكون الموصلي المتوفى سنة ٦١٤ (انظر شذرات ١٠/٥) وانظر في تراجم الباقيين شذرات ١٣٨/٥ و ١٤٠/١٤٤/١٦٨/٢٣٤/٢٨١/٦ ص ٤٤.



أ — مدرسة الصاحبة وقد أقامتها شرقي الصاحبة سنة ٦٢٨ السبعة ربيعة خاتون بنت أيوب شقيقة صلاح الدين (توفيت سنة ٦٤٣ وقد نيفت على الثمانين) وأوقفتها على الخبابة. ولم تكن الصاحبة حنبلية ولكنها قامت بذلك كرمي لصدقيتها المالة صاحبة المدرسة التالية. ومدرسة الصاحبة ماتزال الى اليوم قائمة وتحمل الاسم نفسه وتستخدم مدرسة رسمية وبنائها اكمل بناء حافظت الايام عليه من مدراس الصاحبة. وكان من أوقافها غالب قرية جبة عسال والبستان الذي تحت المدرسة والطاحون المجاورة وغالب الجواكر المجاورة لها هناك (١١٢).

ب — مدرسة المالة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الجليل (توفيت سنة ٦٥٣) وقد تزوجها الملك الأشرف صاحب حصن وكانت شديدة الغنى. بنت مدرستها في غرب الصاحبة تحت جامع الأفرم. وكان من أوقافها بعض بساتين القوطة وغياضها.

ج — المدرسة الضمائية المحاسنية وهي الضمائية الثانية وأقفاها صاحبها (١١٥) محاسن بن عبد الملك بن نجا التنوخي الحنبلية المتوفى سنة ٦٤٣ على من يكون أمير الخبابة. وقد دثرت قبل القرن التاسع...

د — المدرسة الشيرازية وكانت شرقي مدرسة الصاحبة. وقد دثرت بدورها قبل القرن التاسع أيضا لأن رجال العلم في أواخر هذا القرن لم يكونوا يعرفون عنها أو عن المحاسنية السابقة أي خير (١١١).

#### رابعاً : شيخ القادسة :

#### مجموعة الشيخ القادسة الذين أطلعتهم الحركة العلمية الحنبلية لآل

- (١١٢) انظر الحديث عنها وعن مناقبها في القلائد ١ ص ١٥٦ فما بعد والدارس ٧٩/٢ فما بعد.  
(١١٣) أورد ابن كثير ترجمتها مع ربيعة خاتون سنة ٦٤٣ وانظر اخبار مدرسة المالة في الدارس ١١٢/٢.  
(١١٤) بجانب موقع وزارة الخارجية اليوم بدمشق.  
(١١٥) انظر ترجمة الذي شذرت ٢٢٣/٥ وانظر حديث المدرسة لدى الدارس ٩٩/٢ والقلائد ١/١٤٤.  
(١١٦) انظر القلائد ج ١ ص ١٦٤ حيث يقول عن الأولسألت شيخنا الجمال ابن البرد عنهما فقال لا أعرفها ولعلها بالسفح وص ١٦٥ حيث يقول عن الشيرازية: «وقد دثرت...».

القاضي علاء الدين الى كتاب الخلاف للقاضي أبي يعلى فقالوا له لا يوجد الا في الضمائية فأرسل لطلبه منه فجمعه في قفتين وأرسله له.

«قالوا : فمن ثم انفرط أمرها وطمع الناس فيها.

ثم لما جاء تومر (لنك) وذهب زاد انفرط حالها.

فجاء ابن حجر وأخذ منها عدة أحوال. (وهو ابن حجر المستقلاني).

ثم جاء الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين فأخذ منها.

«ثم جاء الحافظ قلب الدين الخيضرى فأخذ منها.

«ثم ان القاضي ناصر الدين ابن زريق الثاني استوعب أحاسن ما فيها» (١١٠).

وتابعت المكتبة اضمحلالها مع اضمحلال المدرسة خلال العهد العثماني

وقد أخذت مخطوطاتها الباقية في اواسط القرن الماضي فقسمت الى المدرسة العمرية التي كانت بدورها مضمحلة وتصرف النظار الجبهة بالكتب حتى جاء الشيخ طاهر الجزائري أواخر القرن الماضي فجمع بين ما جمع من مخطوطات الجوامع والمدارس في دمشق بقايا الثروة الخطية في المدرسة العمرية وأودعه في البناء الذي عرف فيما بعد بدار الكتب الظاهرية. وجانب هام من ثروة هذه الدار بالمخطوطات ما يزال بخطوط القادسة أو يحمل سماعتهم أو وقفهم عدا ما في المكتبات الحالية منها.

#### ثالثاً : المدارس الحنبلية الأخرى في الصاحبة:

ما كان ممكناً أن تسطح المدرستان السابقتان دون أن تتركا في الخبابة من الحماسة مانتشاً معه مراكز علمية أخرى هامة. والواقع أن جهود العلماء الخبابة عامة والقادسة معهم لم تكن محصورة في هاتين المدرستين فقد ظهرت ثمة أربعة مراكز علمية أخرى على أطرافها: وان تكن أقل شأنًا وأصيق أوقافا وثرا (١١١).

(١١٠) القلائد ٨٧/٨.

(١١١) لتلاحظ هنا ان مدينة دمشق عرفت عدا مدارس الصاحبة فهذه ست مدارس حنبلية أخرى هي: الجزيرة والجاموسية والحنبلية والنجانية والصدية والمسارية (راجع اخبارها لدى الدارس ٢ من ص ٢٩ الى ص ١٢٦).



بالزهد والفقه وبمعرفة الفرائض والجبر والمقابلة (٢٠٠).

- \* فخر الدين علي بن أحمد بن عبد الواحد السمدى المقدسى (٥٧٥ - ١١٧٩/٦٩٠ - ١٢٩١) وقد عرف بابن البخارى لأن أباه تنقعه في بخارى وقد سمع الفخر بدمشق والقُدس ومصر والاسكندرية وحض وحلب وبغداد. حدثت سنتين سنة واشتهر حين أعانه طول عمره على أن يصيح مسند عصره كله وتوافد طالبو الحديث عليه من أنحاء الدنيا يطلبون علو الاسناد. وهو الذي قال فيه الذهبي أنه آخر من كان بينه وبين النبي (ص) ثمانية رجال ثقات (٢٠١) وقد خرج له عدد من الشيوخ مشيخته.

- \* عائشة بنت مجد الدين عيسى بن الموفق (٦١١ - ٦٩٧) المحدثه العابدَة وقد روت عن جدّها وابن راجح وعدد من الشيوخ وروى عنها عدد من كبار المحدثين (٢٠٢).

- \* تقي الدين سليمان بن حوزة بن أحمد بن عمر القدامى (٦٢٨ - ١٢٣١/٧١٥ - ١٣١٥) سمع الشيخ بدمشق ومصر وبغداد وأصبهان حتى زاد شيوخه بالسمع والاجازة على ٧٠٠ شيخ وقد أفنى نيّفا وخسين سنة (٢٠٣).

- \* محب الدين ابو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد السمدى المقدسى (٦٨٣ - ١٢٨٣/٧٣٧ - ١٣٣٧) ويعرف بابن الحب سمع عن نحو ألف شيخ وأكثر الناس من الثناء على علمه وفضله (٢٠٤).

- \* شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد القدامى (٧٠٤ - ٧٤٤ / ١٣٠٤ - ١٣٤٣) وقد برع في فنون الحديث ومعرفة الرجال وكتب من المؤلفات ما يزيد على ٥٨ كتابا بعضها في سبع مجلدات وبعضها في مجلد رغم انه اختصر شابا في الأربعين (٢٠٥).

- (٢٠٠) ترجمه في اللؤلؤ ٣٥٢/٢.
- (٢٠١) انظر ترجمتها في شذرات ٤٣٨/٥.
- (٢٠٢) ترجمتها في شذرات ٤٣٨/٥ واللؤلؤ ٣١٠/١.
- (٢٠٣) انظر شذرات ٢٥٨/٦، الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٤١.
- (٢٠٤) انظر شذرات ١١٤/٦.
- (٢٠٥) راجع شذرات ١٤١/٦ الدرر ج ٢ ص ٤٢٢.

قدامة والذين برزوا حتى ذكرتهم كتب التراجم يزيد في العدد على مائة وخمسة عشر شيخا. منهم قرابة النصف من آل قدامة (أسرة أحمد وابنه أبي عمس) ولديها منهم ٥٤ اسما على الأقل. وحوالي الربع من بنى سرور بفرعيهم الشامي والنبلسي (٢٦ اسما) بالإضافة الى ١٤ اسما من آل عبد الهادي و١٢ اسما من آل عبد الواحد والباقي من أسترى راجح والرداوين. وتتضمن الاسماء بالطبع عددا من النساء العائلات يزيد على العشر.

وقد وزعنا هؤلاء العلماء على أسرههم في أشجار النسب الملحقه بالبحث. وبالرغم من أن الحديث عن الكثير منهم قد ورد بشكل أو بآخر ضمن ماضى منه فقد يكون من تمامه أن نستعرض البارزين منهم بوصفهم بعض الأمثلة. فهناك عدا الأربعة الأوائل: أبى عمر محمد بن أحمد، وتقى الدين عبد الفنى، والموفق عبد الله بن أحمد والضياء محمد بن عبد الواحد:

- \* عماد الدين (شقيق الضياء) إبراهيم بن عبد الواحد السمدى المقدسى (٥٤٣ - ١١٤٩/٦١٤ - ١٢١٧) درس في بغداد والموصل وحران بعد دمشق وبرج في علوم القرآن والحديث والنحو والفرائض. وذاعت عنه بعض الكرامات لرذه (١٧٧).

- \* شمس الدين محمد بن إبراهيم هو ابن السابق. (٦٠٣ - ٦١٦/٦١٦ - ١٢٧٧) وهو أول من ولي قضاء القضاة ومشيخة الشيخ من الجنبلة في مصر. وقد دفن فيها (١٧٨).

- \* شمس الدين عبد الرحمن بن أبى عمر محمد القدامى (٥٩٧ - ١٢٠١/٦٨٢ - ١٢٨٤) درس على شيخ الشام وشارك في الجهاد وظل يجتهد سنتين سنة وصار قاضى القضاة فترة ثم اعتزل وكتب عدد من تلاميذه في سيرته وشيوخه (١٩١).
- \* شرف الدين أحمد بن أحمد عبيد الله بن الشيخ أحمد (٦١٤ - ١٢١٧/٦٨٧ - ١٢٨٨) سمع من الموفق عم أبيه وجده لأمه ومن عدد كبار المحدثين. عرف

- (١٩٧) ترجمته في شذرات ٥٧/٥ وابن رجب ٩٣/٢ والصفدي - الروافى ج ٦ ص ٤٩.
- (١٩٨) ترجمه في شذرات ٣٥٣/٥ وابن رجب ٢٩٤/٢ وابن كثير ١٣٧/١٣.
- (١٩٩) ترجمه في شذرات ٣٧٦/٥ وابن رجب ٣٠٤/٢ وابن كثير ١٣٧/١٣.



١٣٩٤) سميع في دمشق ومكة ومصر وحلب ونفرد ببعض شيوخه وسماعاته(٢١٠).

\* شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن العز أحمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي (٧٠٧- ٧٩٨ / ١٣٠٨ - ١٣٩٦) ويشتهر بابن العز. سمي بجدة والقدس ومصر وبغداد حتى كان العالم المفتي والمسند المكثر(٢١١).

\* عمر بن محمد بن أحمد بن عبد الهادي (قتل في غزوة تيمور لدمشق سنة ٨٠٣) بعد أن عمر طويلا وصار عالي الاسناد(٢١٢).

\* عائشة بنت شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي (٧٢٣- ١٣٢٣ / ٨١٦- ١٤١٣) المحدثة التي أوضحت في آخر عمرها أسند أهل الأرض ورحلة الدنيا وأختها فاطمة كانت بدورها من المحدثات (توفيت سنة ٨٠٣ في غزوة تيمور)(٢١٣).

\* شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن سليمان بن حزة (٠٠٠- ١٤٤١ / ٨٤١) وكان أفضى القضاة والمحدث العالم. اشتهر بابن ناصر الدين كما اشتهر بابن زريق. وذهب بالطاعون الذي شمل الشام سنة وفاته وصل مصر(٢١٤).

\* جمال الدين يوسف بن الحسن بن أحمد بن عبد الهادي (٨٤٠- ١٤٣٦ / ٩٠٩- ١٥٠٣) وهو من أشهر علماء هذه الأسر رغم تأخر عصره ومن أغزرهم إنتاجا. أخذ عن جلة شيوخ عصره وشيخاته وتلمذ عليه الكثيرون ومنهم أولاده ومنهم ابن طولون الصالح. قضى معظم حياته في المدرسة العمرية ميسور الحال كرها للمناصب وكانت خزائن كتيبه تزيد على خمسة آلاف كتاب أما مؤلفاته فتزيد على ٦٠٠ كتاب ورسالة وتكشف أنه من أواخر الموسعين في التاريخ

- (٢١٠) انظر شذرات ٣٤٧/٦ والقلائد ٢٩٧/٢.  
(٢١١) انظر شذرات ٣٥٣/٦ والقلائد ٣٣٤/٢.  
(٢١٢) انظر شذرات ٣٣/٧ والقلائد ٢٨٧/٢ الضوء اللمع ج ٥ ص ١١٥.  
(٢١٣) شذرات ١٢٠/٧ والقلائد ٢٨٧/٢ الضوء اللمع ٨١/١٢.  
(٢١٤) شذرات ٢٤٠/٧ الضوء اللمع ٧٤/٢.

\* ست العرب بنت محمد بن فخر الدين علي بن أحمد (البخاري) بن عبد الواحد السعدي (توفيت سنة ٧٦٧ / ١٣٦٥) وهي من المحدثات اللواتي أخذ عنهن كبار الحفاظ(٢١٥).

\* شرف الدين أحمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عمر (٦٩٣- ١٢٩٤ / ٧٧١- ١٣٦٩) حل ألقاب جمال الاسلام، شيخ الحنابلة وقاضى القضاة وعرف بابن قاضي الجبل. قرأ على ابن تيمية وعلى عدد كبير من الأئمة. برع في الحديث والنحو واللغة والاصول والمنطق وحديث في مصر والشام ومع أنه لم يحدد في القضاة فقد كان من البرزين في العلم وله عدد من المصنفات.

\* صلاح الدين محمد بن أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر (٦٨٤- ٧٨٠ / ١٢٨٥- ١٣٧٨) أخذ الحديث عن عدد من كبار عصره في الحديث وعرف بالصلاح والصبر على السماع والاسماع وقد طالع به العمر حتى أضحى مسند وقته ورحلة عصره وهو آخر من كان بينه وبين النبي (ص) تسعة رجال ثقات بالسماع المتصل ولذلك توارد طلاب الحديث من كل مكان فلما مات قالوا: نزل أهل الاسناد بجوته درجة(٢١٦).

\* شمس الدين محمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن المحب عبد الله بن أحمد بن محمد السعدي المقدسي (٧١٢- ١٣١٢ / ٧٨٩- ١٣٨٧) وقد اشتهر بالمحب الصامت رغم كرهه أن يدعى بذلك وهو حافظ كبير ومسند مكثر وزاهد من كبار الزهاد. سمي بدمشق ومكة والقدس ومصر وبغداد. ونفرد بأكثر مسموعاته وصنف في الحديث أعمالا كثيرة(٢١٧).

\* شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عمر القدامي (٧٠٨- ١٣٠٩ / ٧٩٤- ١٣٩٢) وهو بدوره من المحدثين البارزين المكثرين(٢١٨).

\* ناصر الدين محمد بن محمد بن داود بن حجة القدامي (٧٠٨- ١٣٠٩ / ٧٩٦- ١٣٠٩) شذرات ٢٠٨/٦ الدرر ج ٢ ص ٢٢٢.  
(٢١٧) انظر شذرات ٢٦٧/٦ والقلائد ٢٩٤/٢ الدرر ج ٣ ص ٣١٢.  
(٢١٨) انظر شذرات ٢٠٩/٦ والقلائد ٣٠٩/٢ والقلائد ٣١٢/٢.  
(٢١٩) انظر القلائد ٣٩٥/٢.



## ٧) نحو من التلخيص والتلخيص:

ما من شك في أن آلا قدامة ومن ارتبط بهم من الأسر العلمية المقدسية قد تركوا في تاريخ القرون التي عاشوا، أثرهم الواضح العميق:

أ— فقد أسسوا مدينة علم، أقاموا لها بجهودهم وقاديتهم المستمرة مؤسساتها العلمية والاجتماعية كما منحوها مهمتها ودورها ومواردها رزقها في ذلك المعصور واستجلبوا اليها كذلك جهود وقاديات الآخرين فأدخلوها ضمن الخطوط نفسها التي رسموها وخلقوا في الصاحلية مجتمعا يعج بالحركة العلمية بجانب حركته الاقتصادية والعمرائية.

ب— أسهموا على طريقهم وبقدر جهودهم في اقامة الحصون الدفاعية الروحية في الشرق العربي الاسلامي ضد القوى المكثفة له من الغرب (الصليبيين) ومن الشرق (المغول) وذلك بتكوين وتعميق الروح الدينية في الناس. وكان العلم أحد جوانب العملية الدفاعية التي اصطنعها الحكام والناس في الشرق الاسلامي للحفاظ على هويته الحضارية المربية الاسلامية.

ج— أسهموا على طريقهم أيضا في خدمة الفكر الديني الاسلامي، باعطاء طرقه التقليدية حيوية جديدة وأجيالا جديدة من العلماء والشيخ وقد انصب ذلك خاصة على علم الحديث. وكانت جهوتهم تشكل جانباً من حملة رسالته.

د— قاموا بدور اساسي في اشاعة المذهب الحنبلي ونشره وفي بلورة الفقه الحنبلي وتنظيمه. وكان هذا المذهب مضيقاً عليه، في بغداد خاصة لما كان يلاقي من النزاع والخصومة فأقاموا له في دمشق مركز اشباع جديد. يقوم على أساس من التعاون مع المذاهب الأخرى. وبهذا الشكل أنقذوا المذهب عملياً من الاندثار وأعطوه نهضة جديدة لم تنشره في الشام قطط ولكنها مهدت لامتهاده أيضاً الى نجد والى ظهوره في ثوبه الجديد على يد محمد بن عبدالوهاب. وإذا امتد تأثيرهم وتأثيرهذه بهم الحنبلي في المدى الزمني عدة

الاسلامي. وفي المكتبة الظاهرية الكثير من مخطوطاته بخطه وفيها كتب التوحيد والجدل والحديث والفقه والقوى والتاريخ والتراجم واللغة والآداب والطب. وهو أول من وضع تاريخ الصاحلية (٢١٥).

\* ولا بد أخيراً من أن نضيف اثنين من المتأخرين في الأسرة القدامية المقدسية ولكنهما تفردا في عصرهما وكانا أشبه بالقطعة في الأسرة:

١— عبداً جليل بن محمد بن عبداً ملادي العمري (دمشق ١٠٥٥ هـ - المدينة ١٠٨٧) وقد اشتهر بالفلك وله رسائل عديدة في هذا العلم منها: الربيع الجامع في الفلك والربيع المقنطر في الهندسة. وغيرها وكان في الوقت نفسه سالكا سبيل التصوف وتوفي وشيكا في الحج وهو ما يزال في عز الشباب (٢١٦).

٢— عبداً الغني بن اسماعيل بن عبداً الفني بن اسماعيل بن أحد الحنفي النقشبندی القادري (ولد سنة ١٠٥٠ بدمشق وتوفي بها سنة ١٦٤٣/١١٤٣ هـ - ١٧٣١) وهو من كبار المتصوفة (على الطريقة الجبلانية) اشتهر عدا التصوف بالفقه والتفسير والأدب وله عدد من المؤلفات وقد زار جاعيل في رحلته المروقة وكتب: «وقد زنا في تلك القرية ديار أجدانا بنى قدامة الذين هاجروا من تلك البلاد لا.. أخذ الكفار بيت المقدس» وقال: بجماعين دار بنى قدامة سقى جنباتها صوب الغمامة وهم بالصاحلية من دمشق جدودي يعرفون بنى قدامة! وعلى قبره اليوم، جامع يعرف باسمه في شرقي الصاحلية ما يزال معموراً.

(٢١٥) شذرات ٤٢/٨.

(٢١٦) انظر ترجمة لدى المحي - خلاصة الأثر ٣٠٠/٢.



ايصالهم مرتبة أصحاب الكرامات الربانية والأحوال والمعجزات! ولقد عاون المقادسة في ذلك كله على توطيد وترسيخ البنى الاجتماعية — الاقتصادية لتلك العصور وعلى اعطائها أنشكاها التي استمرت حتى مطلع هذا القرن الحالي.

ولاشك أن مما ساعد آل قدامة على ذلك كله أنهم كانوا يتولون عصورهم وأن الجبوتقاني — الروحي مع توالي النكبات الصليبية والغولية كان يتطلب هذا النوع من النشاطات العلمية الاجتماعية ومن البنى الدفاعية فهم أبناء ذلك الجبوتقاني وهم صانعوه في وقت واحد. وعلى أي حال فقد كان هؤلاء المقادسة شيئاً هاماً في تاريخ الشام، ومن خلاله في التاريخ الاسلامي. ولا نكاد نجد في تاريخ الشام هجرة قروية استطاعت أن تترك مثل ذلك الأثر الضخم في السعة وفي الزمن وفي العمق وفي النوع كذلك الأثر الذي تركه هجرة آل قدامة المقادسة الى دمشق.

قرون فقد امتد في المكان من الصالحية الى دمشق فصار لهم محراب في جامعها ودروس مستقرة، والى بلدان أخرى حولها مثل دومة والفسير. وبعليك والى قراهم في جاعيل والى نابلس والقدس ومصر والاسكندرية والى حران واربيل وبغداد.

هـ — شاركوا المشاركة الواضحة في زيادة التراث الفكري الاسلامي وفي حفظه بما ألفوا من مئات الكتب الهامة وبما كتبوا بخطوطهم وما حفظوه منها. وقد ألفوا في المجموع ما يصل الى ألف كتاب ورسالة، كما جمعت مكتباتهم وحفظت ألوف الكتب التراثية مما سمح ببقاء الكثير منها الى اليوم.

و — شاركوا بوضوح في عمليات التعليم والتربية حيثما وجدوا من البلدان والقرى وعلى امتداد القرون التي برزوا فيها. وإذا كان النهج التعليمي — التربوي في تلك العصور دينياً كله فقد وهبه في الواقع خير الأشر من أعمارهم وخير الجهود وعلموا الأطفال والكبار وكان لهم من الخير والمثارة أنهم لم يعلموا المرأة فقط ولكن دفعوها أيضاً الى التعلم حتى كان من نسانهم العائلات وحاملات ألقاب العلم.

ز — اسهموا في الحياة القضائية والادارية والدينية للمصريين الأيوبي والملوكي بما تولوه من المناصب الرسمية والدينية وما قدموه من أبناء أسرهم المديدن لتلك المناصب وقامت نتيجة تقواهم وعلمهم، أحسن الصلات في الغالب بينهم وبين الطبقات الحاكمة (من جند وعلماء وتجار وملاكين) التي قدمت لهم بدورها أحسن الدعم والاحترام.

ح — وأخيراً فقد أسهم المقادسة، على مستوى السلوك الاجتماعي، في إشاعة النمذج المثل لانسان العلم والتقوى باعرف عنهم من الورع حتى البكاء ومن الزهد وكثرة العبادة ومن التعمق في الدين قرآناً وحديثاً وفقها... وكانوا في الوقت نفسه أمثلة في الجمع بين العلم والعمل. وقد تقل الاحترام الشديد لهذه النمذج في رعاية الحكام لهم ومنحهم المناصب الدينية والاولاف وفي مبالغته الناس في تكريتهم ومنحهم المبات والوقوف، وفي الخروج بعشرات الألفوف في جنازتهم وأخيراً في تصعيد ذلك كله لدرجة



اللاحق



قدامة بن همام بن نصر بن عبد الله الجماعلي المقدسي





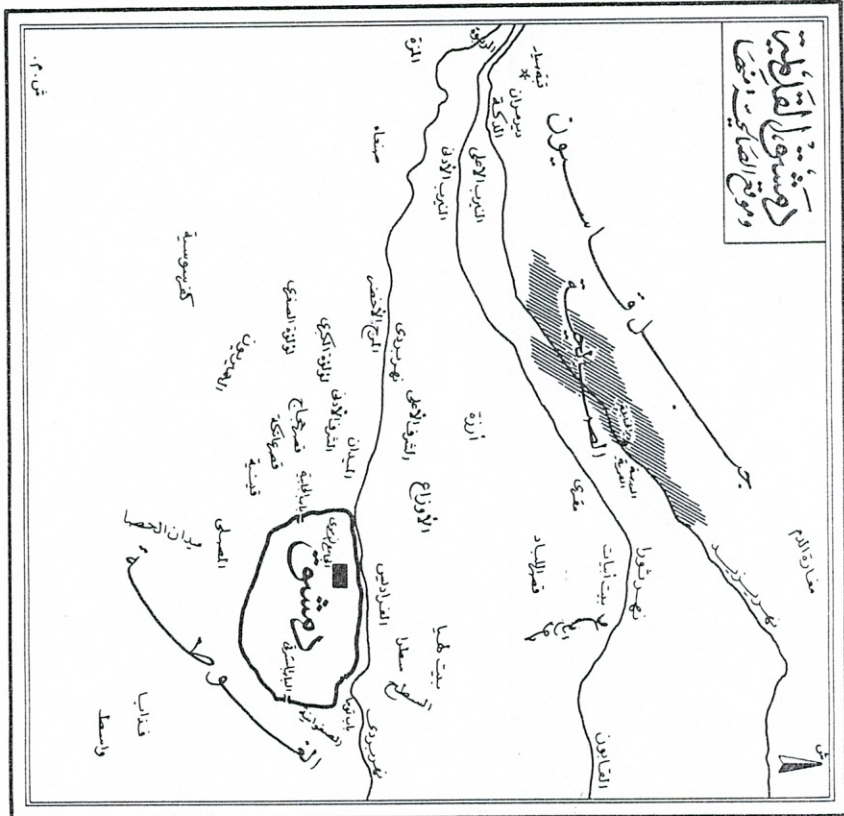






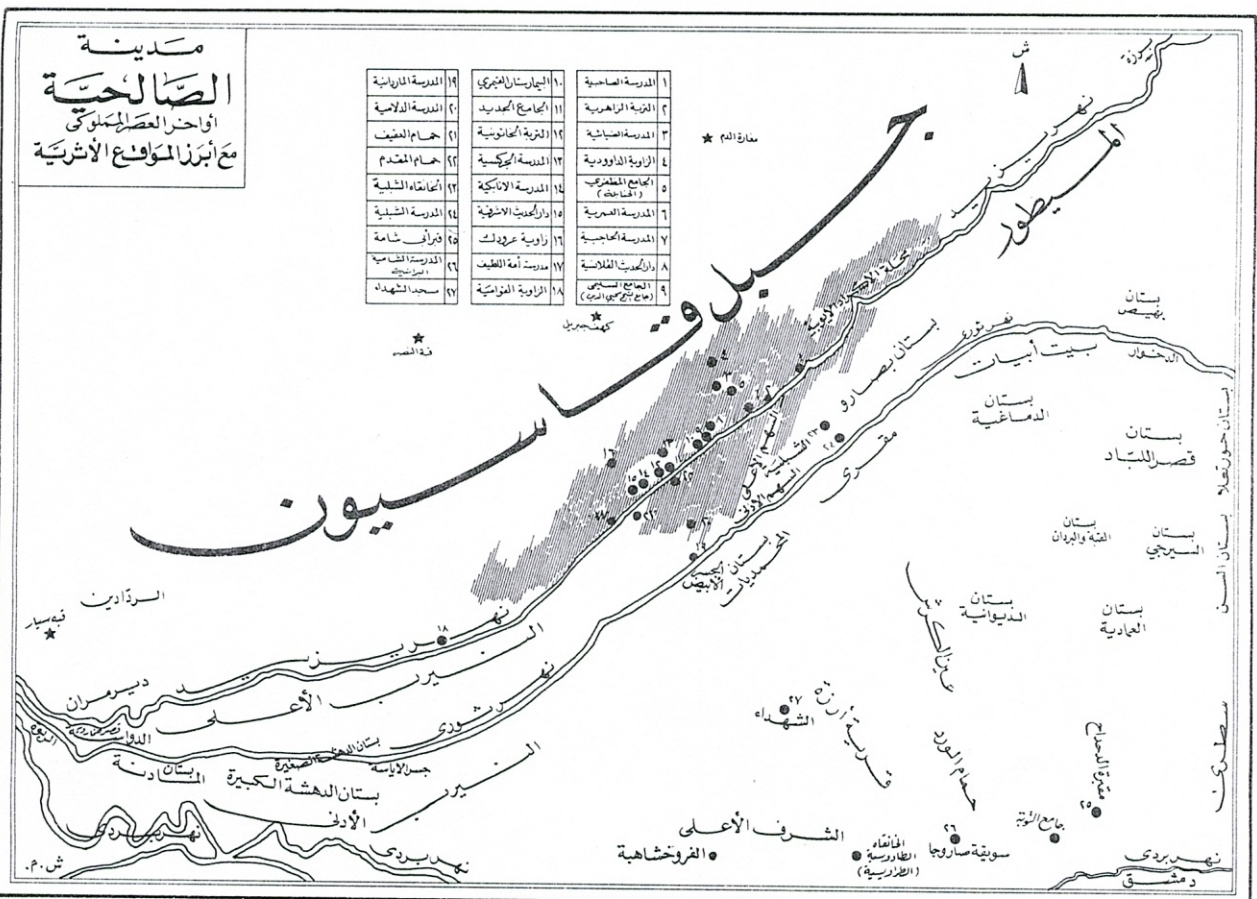


# دھشتون القاطنہ وموقع الصالحات فيها

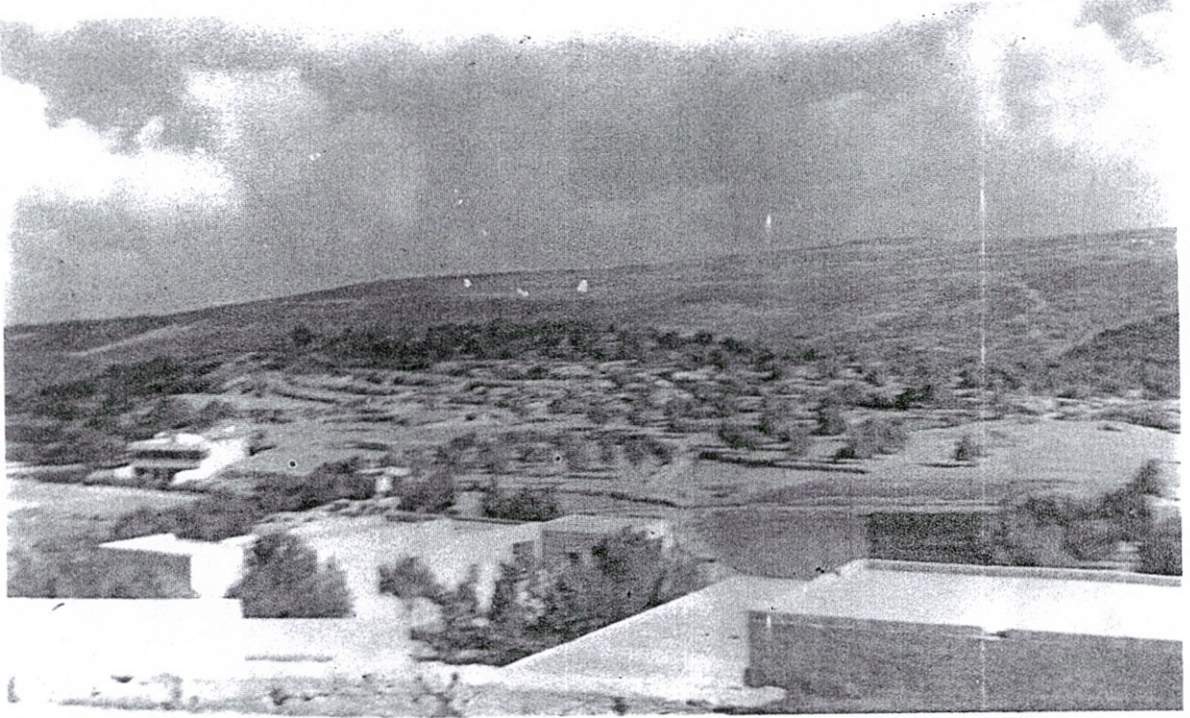


# مکینة الصالحات أو أحوال الصالحات مع أبرز المواقع الأثرية

۱۰ المدرسة المارينية	۱۱ الجامع الكبير	۱۲ المدرسة المارينية
۱۳ الجامع الكبير	۱۴ المدرسة المارينية	۱۵ الجامع الكبير
۱۶ الجامع الكبير	۱۷ المدرسة المارينية	۱۸ الجامع الكبير
۱۹ الجامع الكبير	۲۰ المدرسة المارينية	۲۱ الجامع الكبير
۲۲ الجامع الكبير	۲۳ المدرسة المارينية	۲۴ الجامع الكبير
۲۵ الجامع الكبير	۲۶ المدرسة المارينية	۲۷ الجامع الكبير
۲۸ الجامع الكبير	۲۹ المدرسة المارينية	۳۰ الجامع الكبير
۳۱ الجامع الكبير	۳۲ المدرسة المارينية	۳۳ الجامع الكبير
۳۴ الجامع الكبير	۳۵ المدرسة المارينية	۳۶ الجامع الكبير
۳۷ الجامع الكبير	۳۸ المدرسة المارينية	۳۹ الجامع الكبير
۴۰ الجامع الكبير	۴۱ المدرسة المارينية	۴۲ الجامع الكبير
۴۳ الجامع الكبير	۴۴ المدرسة المارينية	۴۵ الجامع الكبير
۴۶ الجامع الكبير	۴۷ المدرسة المارينية	۴۸ الجامع الكبير
۴۹ الجامع الكبير	۵۰ المدرسة المارينية	۵۱ الجامع الكبير
۵۲ الجامع الكبير	۵۳ المدرسة المارينية	۵۴ الجامع الكبير
۵۵ الجامع الكبير	۵۶ المدرسة المارينية	۵۷ الجامع الكبير
۵۸ الجامع الكبير	۵۹ المدرسة المارينية	۶۰ الجامع الكبير
۶۱ الجامع الكبير	۶۲ المدرسة المارينية	۶۳ الجامع الكبير
۶۴ الجامع الكبير	۶۵ المدرسة المارينية	۶۶ الجامع الكبير
۶۷ الجامع الكبير	۶۸ المدرسة المارينية	۶۹ الجامع الكبير
۷۰ الجامع الكبير	۷۱ المدرسة المارينية	۷۲ الجامع الكبير
۷۳ الجامع الكبير	۷۴ المدرسة المارينية	۷۵ الجامع الكبير
۷۶ الجامع الكبير	۷۷ المدرسة المارينية	۷۸ الجامع الكبير
۷۹ الجامع الكبير	۸۰ المدرسة المارينية	۸۱ الجامع الكبير
۸۲ الجامع الكبير	۸۳ المدرسة المارينية	۸۴ الجامع الكبير
۸۵ الجامع الكبير	۸۶ المدرسة المارينية	۸۷ الجامع الكبير
۸۸ الجامع الكبير	۸۹ المدرسة المارينية	۹۰ الجامع الكبير
۹۱ الجامع الكبير	۹۲ المدرسة المارينية	۹۳ الجامع الكبير
۹۴ الجامع الكبير	۹۵ المدرسة المارينية	۹۶ الجامع الكبير
۹۷ الجامع الكبير	۹۸ المدرسة المارينية	۹۹ الجامع الكبير
۱۰۰ الجامع الكبير	۱۰۱ المدرسة المارينية	۱۰۲ الجامع الكبير







• منظر عام لموقع جماعين حالياً والهضاب الممدودة حولها - قضاء نابلس

## تنويه

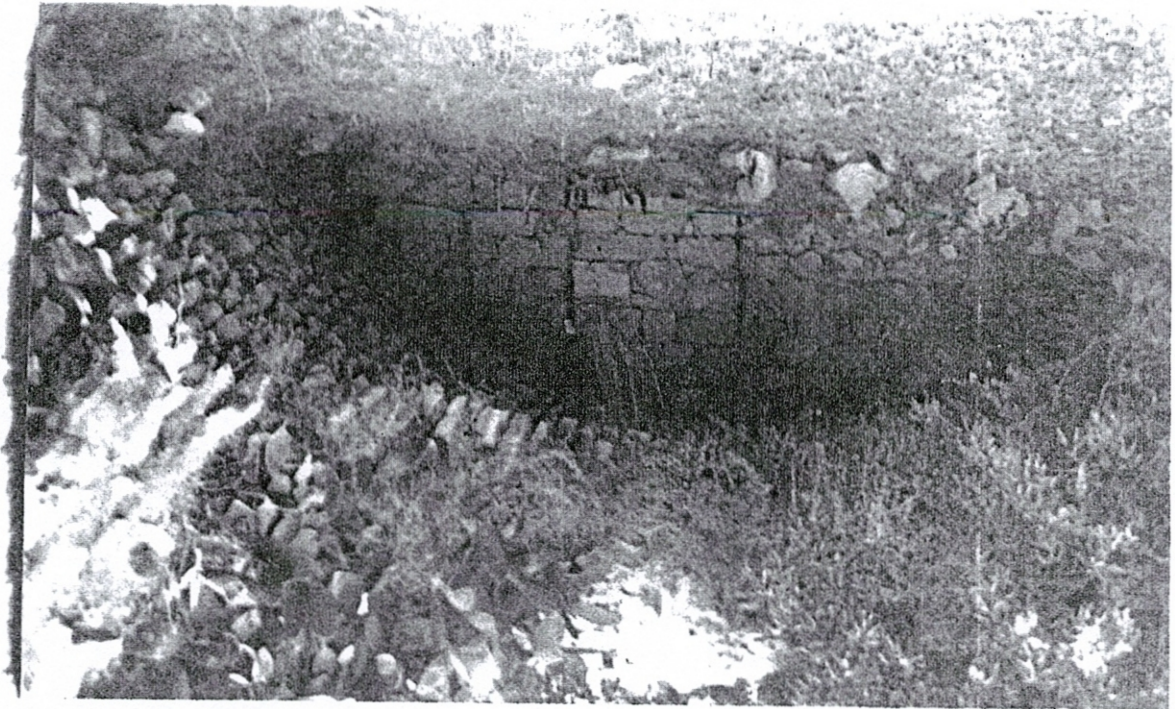
الصور التالية المرفقة مع هذا البحث، هي مقدمة من الدكتور  
إحسان صدقي العمدة الذي يقدم له المؤلف أجل الشكر  
الأخوي.





• دار آل قدامة - القدس الداخلي من الخارج وقد تصدع بجذور الشجر

• دار بني قدامة في جماعتين لم يبق فيها سوى هذا القوس وقد طمرت من الداخل









(٢٠) ابن عبد الهادي

عدة الملمات في تعداد الحمامات — نشر صلاح الدين المنجد — مجلة المشرق، العدد ٤١ لسنة ١٩٤٧ (ص ٤٠٩ — ٤٢٠)

(٢١) ابن عساكر (علي بن الحسن سنة ٥٧١)

تاريخ مدينة دمشق (تحقيق المنجد ج ١ وقسم ١ ج ٢) ط. المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥١ و سنة ١٩٥٤

(٢٢) الملموي (عبد الباسط بن موسى سنة ٩٨١ هـ)

مختصر تنبيه الطالب (تحقيق المنجد) دمشق ١٩٤٧

(٢٣) ابن العماد الحنبلي (عبد الحلي بن أحمد سنة ١٠٩٨ هـ)

شذرات الذهب، بيروت، المكتب التجاري د. ت

(٢٤) القلقشندي (أحمد بن علي سنة ٨٢١ هـ)

صبح الاعشى (ط. القاهرة، ١٩١٣ — ١٩٢٢) تصوير القاهرة ١٩٧٢

(٢٥) ابن كثير (إسماعيل بن عمر المتوفى سنة ٧٧٤ هـ).

البداية والنهاية، بيروت، دار مكتبة المعارف ١٩٦٦.

(٢٦) ابن كنان (محمد بن عيسى سنة ١١٥٣ هـ)

المروج السندسية الفيجية في تلخيص تاريخ الصالحية. تحقيق محمد احمد دهان (ط. مديرية الآثار — دمشق ١٩٤٧).

(٢٧) مجير الدين الحنبلي (عبد الرحمن بن محمد سنة ٩٢٨ هـ)

الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (ط. عمان — بيروت سنة ١٩٧٣)

(٢٨) المحيي الدمشقي (محمد أمين بن فضل الله سنة ١١١ هـ)

خلاصة الأثر (ط. القاهرة سنة ١٢٨٤ — تصوير بيروت).

(٢٩) المقدسي (أحمد بن محمد سنة ٧٦٥ هـ)

مثير الغرام بفضائل القدس والشام — يافا ١٩٤٦

(٣٠) النعمي (عبد القادر بن محمد سنة ٩٢٧ هـ)

المدارس في تاريخ المدارس (تحقيق جعفر الحسني) ط. المجمع العلمي —

دمشق ١٩٤٨

(١١) ابن زفر الأربلي (الحسن بن أحمد سنة ٧٢٦ هـ)

مدارس دمشق وربطها وجوامعها وحاماتها (تحقيق محمد احمد دهان) ط. دمشق ١٩٤٧

(١٢) سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزوين سنة ٦٥٤ هـ)

مرآة الزمان (الجزء الثامن) حيدر أباد الدكن، دائرة المعارف العثمانية، الهند ١٩٥١.

(١٣) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن سنة ٩٠٢ هـ)

الفضوء اللامع (ط. القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٣٦) تصوير بيروت، دار مكتبة

الحياة د. ت

(١٤) ابن شاكر (ألكتيبي) (محمد بن شاكر سنة ٧٦٤ هـ)

فوات الوفيات، بيروت، دار صادر، د. ت

(١٥) أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل سنة ٦٦٥ هـ)

كتاب الروضتين — ط. القاهرة — مطبعة وادي النيل سنة ١٢٨٨ هـ).

(١٦) أبو شامة

ذيل كتاب الروضتين (تحقيق الكوثري) تصوير بيروت دار الجليل ١٩٧٤

(١٧) ابن شداد (عز الدين محمد بن علي سنة ٦٨٤ هـ)

الاعلاق الخطيرة (تحقيق سامي الداهان) قسم دمشق، ط. المعهد الفرنسي

بدمشق ١٩٥٦

(١٨) ابن طولون (محمد بن علي الصالحي سنة ٩٥٣ هـ)

القلائد الجوهريّة في تاريخ الصالحية — تحقيق محمد احمد دهان

ط. دمشق ١٩٤٩).

(١٩) ابن عبد الهادي (جمال الدين يوسف بن حسن سنة ٩٠٩ هـ)

تسار المقاصد في ذكر المساجد (تحقيق أسعد طلس — طبع مكتبة لبنان سنة

١٩٧٤)



the city, but, unfortunately, it disappeared and all that we have been left with, is a shortened version of the book prepared by Mohamad Ibn Issá Ibn Kannan, under the title of: Al-Mourouñ As-Soundussiyra al-Faseeha (or Al-Fayhiyya) Fi Tárikh As-Sálihyya, which was also published in Damascus in 1947.

The present paper is an attempt to study this unique phenomenon with which the history of a learned family of about four centuries - a history that constitutes part of the history of Arab Islamic thinking in Ash - Shám - (Syria), during the Mamluk epoch.

(٣١) الهروي (علي بن أبي بكر سنة ٦١١)

الإشارات إلى معرفة الزيارات. (نشر المعهد الفرنسي — تحقيق

جانين سورديل — تومين — ط. دمشق ١٩٥٣).

(٣٢) الألفاعي (عبد الله بن أسعد سنة ٧٦٨)

مرآة الجنان (ط. حيدر أباد سنة ١٣٣٧ هـ) تصوير بيروت سنة ١٩٧٠

(٣٣) ياقوت الحموي (سنة ٦٢٦)

معجم البلدان، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٠٦ (تصوير بيروت).

## ثانيا المراجع الأجنبية :

(مع ترجمته العربية بقلم الباز العربي)

1 - Eliséff. N. «(Damascus) art. Enc. Is.

2 - Grousset R. H. des Croisades, Plon Paris 1934.

3 - Ruciman S. H. des croisades, Cambridge, university pres, 1968

4 - Sauvaget, J. «(Damascus) — سوفاجيه (ترجمة فؤاد أفرام البستاني).

(بيروت ١٩٣٦) بعنوان : (دمشق الشام لحق تاريخية).



## **The "Qudāmas" and "As-Sālihiyya," A learned Family and a Learned Town**

The "Al-Qudāma" is a family of a Palestinian origin, emigrant and active in Damascus, and Hanbalit in denomination, who left a distinct influence on the history and men of Islamic thought during the Mamluk epoch. This influence was manifested in the family's numerous learned members - "Ulamāa", and their unflinching intellectual activities over several centuries, from the middle of the sixth Hijra century to the beginning of the tenth century (12-16 A.D.)

The family took as a base for its cultural activities a place near Damascus, which was to be called "As-Sālihiyya." Here, the Qudāmas built houses and founded the early schools - "Madrasa-s". Soon, this small place developed into a small town and, immediately afterward into a big town bustling with thought and culture as well as learned people. In the Mamluk epoch, there were scores of schools, mosques, Zāwiyas (Sufi's monasteries) ; Turba s (mausoleums); Khanka s (convents) and Takiya s (charity houses). There, hundreds of learned men lived, and became prominent, and hundreds of others came on visits. All this took place, hand in hand with economic and social activities. The emergence of "as-Sālihiyya" was indeed a historic event in the development of Damascus; topographically, demographically, economically as well as culturally.

Among the outstanding families in Islamic history, the Qudāmas, with other related families, might rank high in the number of its learned members (more than 115 men and women over a period of three and a half centuries), and in their well-known contribution.

And among the scores of cities, known to have been built during the course of Islamic history, and of which some researchers counted three hundred, scattered all over the Islamic World, hardly any other city, except "As-Sālihiyya", was established by learned - men, and specialised primarily in knowledge and learning. The history of the "Qudāma's" family has not, however, been thoroughly researched, although biographical studies have carried many a report on the family's famous people. The history of "As-Sālihiyya", itself, has not, as yet, been studied through a modern, up-to-date structural approach, although, back in history, Moḥamad Ibn Touloun, wrote a book entitled "Al-Qaṭ'ed Al-Jawhariyya fi Ta'arikh As-Sālihiyya." (Literally: The Genuine Necklaces in the history of As-Sālihiyya,) published 32 years ago in Damascus, on the history of As-Sālihiyya's places and important men.

Before Ibn Touloun, Ibn Abdul Hâdi, had written a book on the history of

### **The Autor**

**Dr. Shaker Mustafa**

Ph. D. in Islamic History, Geneva, 1971.

Professor of Islamic History, University of Kuwait.

#### **Publications:**

Among his 26 publications in History and Literature are:

### **Historiography and Arab Historians.**

- Banu Al'Abbas State. Historiographs of the Seljuqid and Ayyubid Epoch. (in French).
- Among his 625 essays and Historical Studies are:
- Taghitegn, the 1st. Alabeg. Popular movements in Damascus (4th to 6th / 10 to 12 Centuries).





مكتبة الملك فهد الوطنية  
King Fahad National Library

FOURTEENTH MONOGRAPH

**THE "QUDAMAS"  
AND "AS-SALIHYYA"**

**DR. SHAKER A. MOUSTAFA**

Department of History - Kuwait University

Annals Of The Faculty Of Arts

Volume No. 3, 1982



Editorial Board

Abdulla Al-Ghoneim  
Nagat Al-Qenaili  
M. S. Abulezz  
Fouad Zakaria  
Saeed Abdel Rahman  
Fahed Thakeb Al-Thakeb  
Tawfik El-Feel  
Ali El-Rail  
Saeed Ashor

Director of Editorial Board  
Chief Editor

Price of the Monograph

400 Flis \$ 2 in Kuwait

Subscription :

For individuals : K.D. 2/000 in Kuwait, U. S. \$ 20.00 in all other  
Countries (by air).  
For institutions : K.D. 10 per year in Kuwait.  
U. S. \$ 40.00 in all other Countries (by air)  
50% Special discount for Faculty & Students

Mail all communications, including publishing conditions and  
Subscriptions to :

Editor,  
ANNALS OF THE FACULTY OF ARTS  
P. O. Box : 26385 - KUWAIT.

# ANNALS OF

## THE FACULTY OF ARTS

Issued by the Faculty of Arts, Kuwait University

A SCIENTIFIC PERIODICAL COMPRISING  
SEVERAL AUTHENTIC MONOGRAPHS ON TOPICS  
RELEVANT TO THE FIELDS OF PHILOSOPHY,  
HISTORY, SOCIOLOGY, GEOGRAPHY AND  
PSYCHOLOGY.

Volume No. 3, 1982